الباحثون الايطاليون ودراسة التاريخ العربي

للمستعرب الايطالي الأستاذ أومبرتو ريتسيتانو

ترجمه عن الايطالية : عيسى الناعوري
(الأمين العام لمجمع اللغة العربية الأردني)

تمهيـــد

هـــذه المراجعة الموجزة لمشاركـــات الباحثـــين الايطاليين في حقـــل (التاريخ العربي) خاصـــة ، لا تشمل الاشارة الى المؤلفـــات ذات الطابع السياسي والديني ، لان ذلك اكثرُ اتصالا بموضوع الاســـلام بحدوده الواسعة ـــ والدراسات الاسلامية تدخل في نطاق ما يدعى باسم ((الاستعراب الاسلامـــي)) ، الواسع الاستعمال ـــ غير ان وجود فصل في هـــذا البحث حول (الدراسات الاسلامية) ، كان القصـــد منه ان يُحول دون اي تحديـــد لا ارادي قد يقع عند الحديث عن حضارة ـــ كالحضارة العربية الاسلامية ـــ كثيرًا ما يتعذّر معهـــا فصل المسيرة التاريخية عن تطوّر العقيـــدة ونموّهـــا .

وبالنسبـــة الى الاساس الذي سرنا عليـــه في تقديم المعلومات هنا ، نذكر انـــه ، من اجل ترتيب افضلَ لهذا البحث ، كان لا بـــدّ من التضحية بالتسلسل التاريخي للمشاركات الفردية المختلفة ، لمحاولة اتباع تسلسل الفترات التي اثرنـــا تحديدها زمنيًا ؛ واعني ان تلك الفتـــرات التي تبدأ بالعهد الجاهلي ، ثم تمـــرّ بالنبي محمـــد ، وخلفائه الراشدين الاربعة ، والخلافة الامويـــة ، ثم العباسية ، الـــى سقوط الخلافة في

بغداد عـام ١٢٥٨ ، قد تلاها الانحطاط ، او الركود ، الذي غلب على العـرب حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، حين بدأت في بعض الاقطار العربية ، الافريقية والآسيوية، تباشير عهـد النهضة . وعند عصر النهضة بتوقف حديثنـا .

• • •

حَوْلِيّـات الاسـلام :

في الوقـت الذي تتناوله مراجعتنا الموجزة هذه ، من حيث الترتيب الزمني ، تُبْرَز بين المستعربين الايطاليين والاوروبيين شخصية عملاقـة ، هي شخصية ليوني كائيتاني . ففي الاعوام التي تَلَـت الحرب العالمية الاولى مباشرة ، نجده ينصرف من جديد الى عملـه في (حَوْلِيّات الاسلام) التي كان قد انقطع عنها بتطوّعه في الجيش . ونحـن نحيل من يُوَدّون معرفة شيء عن اسرة كائيتاني الشهيرة ، وابنهـا العبقري الفـذّ ، الى كتاب فرانشيسكو غبريلي «(آخر آل كائيتاني)» كما نقتـرح على من يدفعهم الفضول الى معرفة البيئـة التي وُلِدَت وتطوّرت فيها تلـك (الحوليات) ان يقرأوا — ان لم يقرأوا بعـد — الصفحات الرائعة ذات الطعم الغَسَقِيّ ، التي كَرّسها جورجيو ليفي ديلاّ فيدا في كتابـه (سقف الحوانيت المظلمة) ، ففي هذا الكتاب اهتـمّ ذلك العالم باللغات السامية والمؤرخ الشهير للاسلام ، بالاصالة والدِقّة اللتين عُرِفَت بهمـا ابحاثه ، بان يُبْرِز المزايا العديدة والهَنات الضئيلة لعمل كائيتاني الجبار ، والنتائج العميقة والحواشي النيّرة التي أَلَفَّتْ معا تحليلا ناقدا من ادقّ الاعمال التحليلية وأصوبها . وقد أوصله الى ذلك اطّلاعُه التاريخيّ والدينيّ العجيب ، وكذلك ما لا يجوز إغفاله من انه كان ، هو وبعضُ المستعربين الآخرين ، بين الذين تعاونوا في العمل مع كائيتاني تعاونا فعالا . ولهذا نرى انّ من الادّعاء الذي لا يُغْتَفَر ان نحاول اضافة شيء افضل او اكثر مما جـاء في الكتابين المشار اليهما ؛ونعترف باستحالة فحص كل محتويات (الحوليات) ، لان هـذا لا يستطيعه الاّ مَن قـرأ قراءةً كاملة كـلّ الصفحات الـ ٧٠٠٠ من تلك الحوليات . ولذلك نكتفي بأن نذكـر في هذا المقام ضمن ايـة حدود زمنية وتاريخية يَجري القسمُ الاكبـرُ

من عمـــل ذلك المؤرخ ، دون ان نتغاضـــى عن إبراز بعض مزاياه الكثيرة ، رغم ما نخشاه ، بل نحن واثقون منه ، من تكرار مـــا اعتمّ كتابَتَهُ ليفي ديلاّ فيدا وغبربيلـــي .

ونحـــن نتّفق تماما مع ليفي ديلا فيدا في اعتبارنا انـــه « اذا كانت أولى نوايـــا كائيتاني التفكير في جعل عملـــه يقتصر على جمع المـــواد وعرضها ، فهو خلال ذلك قد شعر بدافع لا يُقاوَم الى التمحيص والبنـــاء ، فاضاف بذلك الى عملِ جامعِ الوقائع : عملَ المؤرخ » . والواقع انـــه منذ الجزء الاول الخاص بتاريخ العرب في الجاهليـــة ، وتحديدا لا بأس بـــه من سيرة الرسول ، بـــدا جليًّا ان كائيتاني كان يعتزم ان يجعل عمله اكثر اتساعًا واحاطةً مما كـــان العنوان يسمح باقتراحـــه . وهـــذا التمحيص للمصادر الذي التزم بـــه المؤرخ منذ البداية ، ازداد دقـــة في الأجزاء التاليـــة التي زوّدها بكثير من التنبيهات الخطيرة والمفيـــدة ، وذات الطابع البنائي . ولقد شَجَّعه ما لقيـــه من تأييد كبار الباحثـــين ، ولم يُثبّط همته ما لقيـــه احيانا من النقد الذي لا بـــدّ منه . ومضى كائيتاني يعمل بهمة نشطة وحماســة متواصلة في نشر الجزاين الثالث والرابـــع ، وهو يزداد يقينـــا من ان الخطّة الجريئة التي اختطّها ليجمع في عشـــرة اجزاء احداث ما يزيد عن ٩٠٠ سنة مـــن التاريخ (اي حتى احتـــلال العثمانيين لسوريا ومصر ، سنة ٩٢٩ هـ . ١٥١٧ م .) كان لا بـــدّ من تعديلها تعديلا اساسيا . وقد عَبَّـــر عن تلك الضرورة بصراحة نفسي مقدمة الجزء الخامس حيث يقـــول : (ان وفرة المـــوادّ تستمرّ في تلبية التوقّعات المتكررة حول عـــدد اجزاء الحوليات . . . وسيظل البعد حجة لانتقاد الابعاد التي ما تني تأخذها ... لان استمرار العمل على قاعدة شديدة الاتساع ، يزيد من صعوبة إنجازه . . .) .

ويتبـــع كائيتاني تصريحه هذا بتوقّعٍ ، لا شك في انـــه اكثر واقعية من ذلك الذي سبق ان تكوّن لديـــه حين شرع في تنفيذ تلك المهمـــة الموسوعية ، وهو انـــه من الممكن ان يصل بعشرين مجلّدا أخرى الى نهاية العهد الاموي . « لقد عُملتَ حسابا — كما يقول بعدئذ — بالنفس

لـو استطعت الثقة من ان اعيش عشريـن عاما اخرى مـن العمل الجاهد ، وبالمساعدة النشيطة التي يُقدِّمها لـي بعض المعاونين القديرين ، فلربما استطعت ان أُقـدِّم للطبع نحو عشرين كتابا مثل تلك الكتب التي صدرت حتى الآن . . . مستمرًّا على غرار تلك الكتب السابقة دون تغيير في الطريقة او النوع . ان النتيجة واضحة : فحياة انسان بكاملهـا ، اذا كُرِّسَت لهذا العمل ، قـد تبلغ بالحوليات الى بدايـة الخلافة العباسية فقط ، دون ان تمسَّ كلّ عصور التاريخ الاخـرى ... لهذه الاعتبارات وسواها ، مما أُريحُ القارئ من سرده ، توصلتُ الـى ان أُقرِّر الشروع في طبع كتاب آخر ، تكميلي ، او على الاصح ، مُكَمِّل ، يكون الصـورةَ او الشكل التحليلي تقريبا للعمل الاكبر ... » . ومـن هناك نشأت (الوقائع الاسلامية) التي استُخْدِمَتْ فيهـا ، في موجزات اخبارية ذات صلة بتاريخ الشعوب الاسلاميـة ، الجزازاتُ التي لا عُـدَّ لها مما جمعه خلال إعداده لعمله الكبير . غـير ان كائيتاني لم يستطع ، حتى مع هذه المهمـة الجديدة التي وُقِفَتْ عند عـام ١٤٤ هـ / ٧٦٢ م ، ان يُحقِّق ما كان قد حَزَم امره عليه من الوصول الى حدود عـام ٩٢٩ هـ / ١٥١٧ م ، كما كانت نيّتـه الحازمة ، بل ظَلَّ ذلك مرةً اخرى طموحًـا وهَيِّبًا . ولم تكن اقـلّ وَهْمًا كذلك ـ كما تَجلَّى بعدئذ في ما يتعلـق بالحوليات ـ توقعاتُ المؤرخ حول (الوقائع) ، فانـه لم يُكمل بَعْدَ ذلك من عمله العظيم اكثر من خمسـة اجـزاء اخرى ، بلغ معها العمـل الى الجزء العاشر ، الـذي وصل الى سنة ٤٠ هـ / ٦٦١ م (نهاية خلافة علـي) . وهذا يعني اقـلّ من ثلث ما كان قد خَطَّط لـه بجرأة حماسية .

ان هـذه الحوليات ، التي اعاد كائيتاني نشر بعض موادّهـا في جزأي كتابه (دراسات في التاريـخ الشرقي) ، سرعان ما لقِيَتْ تقدير الاوساط العلمية الاستشراقية وغيرها ، في ايطاليا وفي الخـارج ، وليس فقط للعمل الجبار في جمع اكثر من مئـة وخمسين مرجعا تاريخيا ، وتاريخيا لديبـا ، ونُرْزها (واغلبُها ما يزال غير مطبوع) بـل لاعتبارها ايضا مرجعـا لا مثيل لـه في الحقيقة ، لمعرفة العهـد الاسلامي الاول ،

وللاعتبارات النقديـــة والتمحيصية المديـــدة ، والحدس العبقـــري ، والفرضيات المغرية المبثّة في ثنايا ترجمات النصوص او تلخيصاتهـــا . ولئـــن كانت مواقفُ الباحث المتساهلة جـــدًّا مع الايجابية التاريخية ، ونَقْدُه العنيد لقيمة الابحاث التاريخية التقليدية في شؤون الاســـلام . لم تَلْـــقَ اصداءً حسنة لدى المختصّين ، فـــان هؤلاء انفسهم ، حتـــى في عـــدم اتفاقهم معه ، قد ابدوا اعجابهم الشديد بمواهبه ومقدرتـــه العلمية ، واثنوا دائما على المثابرة والدأب اللذين ابداهما في قيامـــه بتلك المهمـــة التاريخية ، مُشيدين بنشاطه في التنقيب التاريخي ، وعكوفه على البحث الدائب ؛ ناهيك بالثناء علـــى الروح التي تَحَلّى بهـــا في اعادة صياغة المـــادة الخام التي كان يعثر عليهـــا .

لختـــام هذا الحديث نضيف الى ما تقدم ان (حوليّات الاســـلام) ، حتى في نموها المحـــدود في هذه الوقائع باجزائها العشرة ، قـــد رَدّت الاعتبار والفضل الى الدراسات العربية والاسلاميـــة في ايطاليا ، بعد ان فَقَدَت قيمتَها الصحيحة في حقـــل الحوليات التاريخية منذ (الحوليات الاسلامية) العشوائية التي كان قد جمعها (ج . رامبولدي — ميلانـــو ١٨٢٢ — ٢٥) والتي لا يستطيع حتى النقـــدُ المتساهل ان يُنسمـــي عليها ولـــو قيمةً ضئيلة من الاصالـــة .

وفي ســـنـــة ١٩٢٦ ، سنة ظهور الجزء الاخير من الحوليـــات ، كان قد صَحَّ عـــزم كائيتاني على مغادرة ايطاليا ، لاسباب مختلفـــة . وقد نَفَّـــذ عزمه ذاك ، ولكنْ بعد ان قرّر ان يَعْهَـــد بمؤلفاته ومـــوادّه الدراسية الاخرى الى (مؤسســـة كائيتاني) التـــي أُنشئت في الاكاديمية الايطالية (اكاديمية الفهـــود) وكان الغرض من ذلك رغبته في ان يهيئ للباحثين الآخرين الشهادات الناطقة بتكريس عشرين سنة من عمـــره لدراسة التاريخ العربـــي . وربما كان يأمل — املاً لم يتـــمّ ، مع الاســـف — ان يقوم غيره باكمال عملـــه .

ـــع التسلسل التاريخي :

ونمضـــي نحو الهدف الذي رمينا اليه واعربنا عنـــه في ما تقدم ، من أن نسير في دراستنـــا السريعة ، مُتَوخّين قبل كل شيء تتبُّع الاحداث التاريخية ، فنرى من المناسب ان نبـدأ بإبراز الاعمال التي تجـد فيها جميع قرون التاريخ العربي الثلاثة عشر ، او الاربعة عشر ، او قسما كبيرا منهـا موجزة في رؤية اجمالية . ومن هذه نستدلّ علـى المنشورات الثقافية الجديرة بالاعتبار ، والتي تقوم الجدّية العلميـة ، وثقافة المؤلفين الواسعة ، ضمانةً كافية لصلاحها واهليتهـا .

اولُ محاولـــة لجمْع تاريخ مثل هذا العدد الكبير من القرون ضمن حدود ضيّقة ، قامت بها السيدة لاورا فيتشيا فاليري . ففـي الفصل الذي عقدته على (العـرب) والمنشور في كتاب (حضارات الشرق) ، وضعت خطوطا لرسم سريع وكامل لتاريخ ذلك الشعـب ، واستطاعت ان تُجرّد التاريخ مما لا حاجةَ اليـه في مثل هذه الابحاث التاريخية . وكان اهـمّ من ذلك كثيرا اهتمامُ مستعربتنا هذه في كتابهـا (الاسلام ، من محمـد الى القرن السادس عشر) بأن لا تستعرض تاريخ العـرب فحسب ، بل توجـز خصائص الاسلام التاريخية ، والدينية ، والثقافية ، وكذلك الادبية والفنية . انهـا لدراسة واسعة للعالَم الاسلامـي ، دون استثناء لعناصره الفارسية ، والبربرية ، والتركية . وهذه الدراســة تجـد ختامها المنطقيّ في بدايـة القرن السادس عشر ، فتلتقي زمنيًّـا بِعَنْمَنَة العالم العربي المتوسّطي . وهذا ما لم تستطـع ان تصل اليه (حوليات الاســلام) ، كما اوجزنا في ما تَقَـدّم .

امـا فرانشيسكو غبريلي ، الذي ستتوالى في هذه الدراسـة الاجمالية وفي غيرهـا الاشاراتُ الى جهوده الجبارة في حقـل الدراسات الاستعرابية ، والاسلامية ، والفارسية ، فقد صادفَ بكلّ جـدارةٍ نجاحا كبيرا بكتابه (العـرب) ، الذي يستحقّ التقدير الكبير لحسـن توزيعه للمـواد ، ووضوح عَرْضه حتى للأحداث العربية التي لا يتـاح الوضوح في عرضها الا لقلّـةٍ من المتفوقين ، وكذلك لبعض اللمحـات

الشخصية التي لا يصل اليها بسهولة غير العالِم المتخصّص . ومزايا هذا الرسم الجانبيّ الكامل للتاريخ ، المرسوم في ضوء رؤية دؤوبة ممحّصة نقادة ، من اقدم العصور الى ايامنا هذه ، يؤكّدها ان هذا الكتاب سرعان ما تُرْجِمَ الى الانكليزية والفرنسية والالمانية . ولا يختلف عن هذا الكتاب ، من حيث التقسيم التاريخي ، كتابٌ آخر هو (العرب ، من العصر الجاهلي الى اليوم) ، لأُومبرتو ريتستانو . فبعد استعراض وافٍ لا بدّ منه للأحداث التاريخية العربية من الوثنية الى العصر الحديث ، نجد احدثَ الظروف والشؤون العربية معروضة عرضا وافيا ، ومنها ما لا يزال الى اليوم يفرض نفسه على اهتمام العالم الغربيّ — غير الواعي دائما ، مع الأسف — . واخيرا سنذكر في هذا العرض السريع للملامح الشاملة لأحداث الشعب العربي التاريخية ، ان لفظة (عرب) والفقرات الخاصة بعِلْم الأعْراق ، وبتاريخ اسم (الجزيرة العربية ، في (دائرة معارف تريكّاني) قد حرَّرَها جورجيو ليفي ديلاّ فيدا ، وهي تحمل الخصائص المتميزة للمعلومات السريعة الحسنة التبويب ، والتي لا تعرف التعميمات السهلة .

الجزيرة العربية :

من السهل ان يُدرك المرءُ ان الجزيرة العربية ، قبل ان يُجَدِّد الاسلامُ مجتمعاتِها القائمة على البناء البدويّ ، والخاملة الى حد ما ، والتي تُعْوِزنا معرفتها لندرة المعلومات والوثائق ، وتصعب معرفة بعض مظاهرها الفريدة ، قد كُتِبَت فيها الابحاث والرسائل العلمية ذات الطابع التاريخي في اساسها . وهذا ما عُتِمِدَ عليه الفصل الاول من (تاريخ الدين الاسلامي) لميكيلانجيلو غويدي . واكثرُ من ذلك الفصلان الأوّلانِ من كتابه الذي نُشِر بعد وفاته بعنوان (تاريخ العرب وثقافتهم حتى وفاة محمد) الذي جاء تمهيدا لا بدّ منه لحديثٍ اشمل حول ثقافة العرب . ولكن هذا الحديث لم يُكْمَل بسبب وفاة المؤلف المبكرة . ومع ذلك لم يُخْلُ الكتاب المذكور من عَرْضٍ كافٍ للبيئة الاجتماعية التي تكوّنت فيها هذه الثقافة في اقدم الازمنة . وكان غويدي

بهي هذه الحاجة ، فرسم للجزيرة في وقتها لوحة امينة بقدر الإمكان ، استنادا الى المادة التاريخية الواسعة التي استطاع ان يُجْمِعَها خلال سنين عديدة ، ويُقيِّمها بحسّ تاريخي عجيب ، وبروح مجرّدة من كل شكل من اشكال النقد الاعتباطي الذي لا مبرّر له ، مع ان الكثير منهما خرافي .

وهناك اعمال اخرى لباحثين قديرين اقتصرت تماماً على الجزيرة العربية في جاهليتها . وان الواجب ليدفعنا الى ان نذكر في مقدمة هؤلاء الباحثين اغناطيوس غويدي ، الذي جُمِع تحت عنوان (الجزيرة العربية قبل الاسلام) اربع محاضرات القاها بالفرنسية عام ١٩٠٩ في جامعة القاهرة ، حيث دُعي لالقاء دروس في الأدب الجغرافي والتاريخي واللغوي عند العرب . واذا لم يكن هنا المجالُ لتذكير المختصّين بمزايا هذا المستشرق العظيم ، وفضلِهِ في مختلف حقول الساميّات المتعددة ، فاننا نرى من فضول القول ان نؤكّد ما لهذه المحاضرات الاربع من قيمة رفيعة ، يستطيع ان يُلْمَسَها حتى الجاحدون ، حول مهد الحضارة العربية في شمال شبه الجزيرة وجنوبها . وهي تؤكد ما لاغناطيوس غويدي من مقدرة فريدة على تحويل المادة الجافّة المتعلقة بظروف الثقافة العامة ، الى عمل علمي .

غير ان الباحث الذي انقطع في الماضي القريب ، وبشكل يكاد يكون مضرب المثل ، الى صرامة البحث العلمي في دراسة الجزيرة العربية قبل الاسلام ، كان كارلو الفونسو نَلّلينو ، الذي جُمِعَت آثارُه العلميّة في هذا الحقل الخاص ، بعد نَشْرِها في مجلات عديدة — ولم يُنْشَرْ بعضها من قبل — في المجلد الثالث من مجموعة اعماله العلمية ؛ وقد نُشِرَت هذه المجموعة بعد وفاته في ستة مجلدات بعنوان (مجموعة كتابات منشورة وغير منشورة) . والباحثون في علوم العربية والاسلاميات ، المختصون بدراسة مهد الاسلام من المستشرقين وغيرهم ، يعيد الى اذهانهم اسمُ نَلّلينو كثيرا من الكتابات الفنية حول العقيدة الاسلامية ، ومن الاشارات القاطعة حول وجود الادب في الازمنة القديمة . ومن

ذلك بحثه بالفرنسية تحت عنوان (هـل كانت لمصر صلات مباشرة بجنوب شبه الجزيرة العربية قبـل عصر بطليموس ؟) واكثر من ذلـك ابحاثه الاخرى الخاصة (بالعربيـة السعيدة) التي انفصلت عن شبه الجزيرة بتركيبها الاجتماعي والدستوري ، ومنها (اليمـن في العصر الجاهلي) ، ويكمله ايضا (اليمن في العهـد الاسلامي) ؛ وهما بحثان متميّزان وكبيرا القيمة ، كَتَبَهُما حول كلمة (اليمن) لدائرة معارف تريكّاني . وفي مقالات اخرى عديدة مدوّنة في الجـزء المشار اليه من (مجموعة كتابات) ـ ولم نذكرها هنا ، لانهـا سَبَقَت الاعوام الخمسين التـي تتناولها هذه الدراسة ـ نجـد اشاراتٍ متلاحقة الى (الجاهليـة) . ونحن نجـد للجاهلية تاريخا كاملا في (الجزيرة العربية قبل الاسـلام) .

ولكن هـذا الكتاب ، بحكم الاهداف التعليمية التـي وُضِع من اجلها ، يختلف عن سابقاته بعرضه السهل ، الذي تَخَلَّص عَمْـدًا من التقنية الزائدة ، ولكنـه دون ريب بعيد جـدا عن الضعف او عـدم الاتقان ؛ فلقد كان هذا المعلّـم الشهير ابعدَ ما يكون عن الضعـف وعـدم الاتقـان .

وفي وثنيـة الجزيرة العربية نجـد كتاب (الجزيرة العربية قبـل الاسلام : التراث العربي) ، وقد وضعه ليفي ديلا ڤيدا باللغـة الانكليزية . وبعد أن يرسم المؤلف لوحة رائعة لمهـد الاسلام ، يمضي في الحديـث على ذلك التراث العربـي الذي عرفه الباحث كما لم يعرفه غير القليلين ، لِمَـا شَغَلَ بـه نفسه طويلا من التقييم الواعي ، والدراسة الناضجـة ، والفحص الناقد للمصادر . هـذه الاعمال جاءت نتيجةً للبحث العلمـي الجادّ الصارم في تاريخ بَلَـدٍ كانت ارضُه الجنوبية ـ اليمن الاسطورية ـ قد اوحت ببعض الاعمال والابحـاث في العصر الحديث . ونقتصر ههنـا على ذكر (اليمن في التاريـخ والاسطورة) لكارلو انسالدي ، وهو كتـاب يُعيـدُ تركيب بعض الصور والوقائع التاريخية التي يُعْوِزُها المـرض الصحيح أحيانا . وكما هـو معروف ، يمكن ان نعتبر الشعر العربـي في العهد الوثني ، بكثير من الثقـة ، تعبيرا ادبيا عن العرب في ذلك العهد ،

يُمثّل في الوقت نفسه واحدا من اكثر المصادر مباشرة واصالة لمعرفة المجتمع البدوي القديم . ولذلك كثيرا ما اشار مستعربنا الاوثق والاكثر معرفة بالشعر العربي القديم ، فرانشيسكو غبريلي ، الى الوثنية العربية ، لضرورة وضع اطار لأقدم تحول البُرْناس العربي ضمن ذلك النطاق التاريخي ، والتاريخي الثقافي .وكان اطول من ذلك وادعى الى عمق التفكير انشغاله المتمهّل بالتراث التاريخي والاسطوري في ذلك العهد . واكثرُ ما يكون غَرَضُ ذلك البحاثة تحديدا ، كان في وضع البداوة العربية في صلة مباشرة مع اللحظة الشعرية ، كما فعل في ابحاثه التالية — : (المجتمع البدوي والشعر الجاهلي — القبلية والدولة في الشعر العربي القديم — الادب البدوي الجاهلي) وكلّها موضوعاتٌ عادَ الى بحثها من جديد في دراسته للعهد الاسلامي في كتابه الفرنسي (القبليّة العربية والدولة الاسلامية في العصر الاموي) ، وفيه اجاد غبريلي اختيار مقاطع شعرية ، وترجَمَها الى الايطالية بمهارته المعروفة واناقة صياغته . وكان ذلك مما سكتت عنه المصادر التاريخية ، او اشارت اليه اشاراتٍ غيرَ واضحة دائما .

• • •

العهد الاسلامي :

ويجيء الآن الوقت الذي نُعْبُر فيه من شبه الجزيرة العربية الوثنية الى ابنها الاعظم ، نبيّ الاسلام ، الذي كانت سيرتُه موضوعا لأروع الابحاثِ التي قام بها كائيتاني ، ثم اصبحت بعد ذلك ، في عام ١٩١٧ ، مادة لمناقشاتٍ وابحاث علمية واسعة ، راحت تتزايد وتنمو مع الايام ، على اثر اطروحةٍ علمية للدكتوراة حَوْلَ اقدم الاحاديث المتعلقة بحياة محمد . وبعد بضع سنوات قامت السيدة مرجينيا ماكّا دى بوسيس — التي اثارت ذلك النقاش غير عامدة ، ولم يُلْبث اسمُها ان برز بين كبار المستعربين — بنشر كتابها (سفارات محمد الى الملوك ، في رواية ابن اسحٰق والواقدي) ؛ وفيه درست ، على اساس الاخبار التي اوردها المؤرخان المذكوران ، علاقات الاسلام في بداياته بالنجاشي ، وكسرى الثاني ، وهرقل ، والمقوقس .

وبين أوائل الباحثين الذين عُنُوا بوجوب فصل الخرافة عن التاريخ ، في تلك الغابة الكثيفة من الاخبار التي وصلت الينا من الروايات التاريخية العربية ، نجد كارلو نَلّلينو . فَبَعْدَ ان كَتَب بحثا رائعا حول سيرة النبي ، كَتَبَ كذلك بحثا حول اسم (محمد) لدائرة معارف تريكّاني ، قَسَّمه حسب التقسيمات الكلاسيكية : الحداثة ، العهد المكّي ، العهد المدني ؛ وبعض الاعتبارات القصيرة العامة التي كان البحاثة قد أطال الكتابة فيها في بحث له بعنوان (في الذكرى المئوية الثالثة عشرة لوفاة محمد) . ومن المفروض ان ميكيلانجيلو غويدي ، في الفترة نفسها ، كان معنيًّا بترتيب مجموعته ، وفي دراسة المراجع التي استمدّ منها فصل (النبيّ محمد) وتنسيقها . وكان ذلك الفصل هو الثالث والاخير من كتابه المذكور آنفا (تاريخ العرب وثقافتهم) . في هذه الصفحات يبدو هنا وهناك اقتناع غويدي المسبق بأن ثمة تاثيرا اساسيا للروح العربية في الحضارة الاسلامية . وكان الكاتب يودّ ان يثبتها فيما بعد بادلة يفترض انها ثابتة واصيلة ، لو قُدِّر له ان يبلغ بكتابه الى منتهاه .

اما الابحاث التي ضَمَّنها غبريلي كتابه (مظاهر من الحضارة العربية والاسلامية) ، فقد كان الغرض الاساسي منها التعميم ، والقليل منها كان بقصد التاريخ — كما يوضح ذلك عنوان الكتاب — كانت ثلاثة من هذه الابحاث تدور حول نبي الاسلام ، نُقَدِّمُه اولاً الى القراء منصرفا الى حوافز تجربته الدينية ، ثم مُواطنًا اولَ في مجتمع المدينة . حتى في هذه الخطوط القصيرة يبدو البحاثةُ رسّاما ومفكرا بارعا في رسم الملامح واللمسات التاريخية السريعة ، والجديرة بأن تقول شيئا جديدا حتى للمتخصص ، ولكنها بشكل خاص تُثَقِّف الجاهل دون أن تفرض عليه عناء الثقافة المتخصصة جدا . وبعد اعادة صياغة الابحاث المشار اليها حول شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام ، وحول محمد ، في مقال بالالمانية عنوانه :

Mohammad und der Islam als weltgeschichtliche erscheinungen

ظهر ضمن سلسلة (تاريخ العالم) ، كَتَبَ غبريلي كتابا بعنوان (محمد والفتوح العربية الكبيرة) هو ، في الواقع ، كتابٌ قليل عليه ان يُنْعَتَ بأن قراءته ممتعة . وهذا العمل الجديد يرمي ، كغيره ، الى تعريف عامة المثقفين بمظاهر خاصة من حضارةٍ قد لا يعرفونها الا على وجه التقريب . ونجد فيه ثلاثة فصول متكاملة حول نبي الاسلام ، تُقَدِّمُه اولاً في ضوء تقديس اتباعه له ، ثم يلي ذلك حالا تقديمُه في ضوء حكم المسيحية السلبي في دفاعها عن عقيدتها خلال القرون الوسطى ، ثم في ضوء التقييم المستنير الجديد ، واخيرا في الرؤية الرومنتيّة (كصاحب شريعة ، وملهِمٍ عظيم) و (كموقظ لقوى شعبه الهاجعة) . وكان المستعربون والباحثون في الاسلام قد قاموا ، منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر ، بالعمل على قواعدَ اوثقَ واثبت في اعطاء حكم تاريخي اكثر توثيقا ومصادر حول باعث العروبة ورسالته النبوية . وهذه الصحائف التي كَتَبَها غبريلي والتي جاءت بَعْدَها ، وَرَدَتْ فيها ، ببراعة المعلم القدير ، احداثُ حياةِ محمد في مكّة والمدينة ، وبالتالي اوضحت بجلاء خُطى الاسلام الماضية قُدُمًا الى اقصى مدى لانتشاره في الشرق والغرب . واذا كانت هذه الفصول تلتقي في الاصل التاريخي العامّ مع اعمالٍ علمية مشابهة لها لعلماء آخرين ، فانها تختلف عنها اختلافا تاما من حيث المقارنات الجديدة ، ومن حيث التقييمات الدقيقة التي غالبا ما تتميز بالاصالة المطلقة .

ويقتضينا واجب الامانة العلمية ان نختم هذا الحديث بأن نُذَكِّر ان في الكتابات المتعلّقة بسيرة محمد ، والتي تتضمّنها كُتُب التاريخ العربي العامّ المشار اليها ، وكذلك في المؤلفات الرامية الى التعريف بالاسلام — ونذكر منها ابحاث مارتينو ماريو مورينو ، ولاورا فيتشا فاليرى — اقتَصَرَ المؤلفون على البناء المألوف ، ولم يبتعدوا عنه الا ليُدخِلوا فيه افكارا واستنتاجات ذات طابع شخصي .

• • •

بعد الانتصارات العسكرية المدويّة الأولى للاسلام ، والتي نجِدُ منها في كتاب فرانشيسكو غبرييلي المذكور صُوَرًا ملحميّة من المعارك الآسيوية والافريقية ، اندلعت في المجتمع العربي والاسلامي، الهشّ حينئذ ، نارُ الحرب الاهلية بمبايعة عليّ بالخلافة . فلقد اعترض عليها معاوية اعتراضا شديدا عنيدا ، الى حدّ المناداة بالحرب . وكان اول من درس الموادّ التاريخية التي يتضمّنها كتاب (انساب الاشراف) للبلاذري ، بِقَصْد المضيّ نحو اعادة بناء فكرة صحيحة عن تلك المعارك التي كان سببها الوصول الى السلطة ، هو جورجيو ليفي ديلا ڤيدا ، عام ١٩١٥ . وكان قد اتيح له ان يصل الى معرفة ذلك النصّ وتقدير اهميته ، في اثناء معاونته في (حوليات الاسلام) . ونتج عن ذلك ان اصبحت هذه لديه رسالة يؤديها في فترة ما . وبعد قرابة عشرين سنة اخذ ذلك العالِمُ بالساميّات يهتمّ بالعودة الى دراسة ذلك الكتاب بمعاونة المرحومة اولغا بينتو ــ تلميذته ــ في القسم الذي خَصَّصه البلاذري للخليفة معاوية . ولكنه في الغالب كان يعتبرها مجموعة غير منظّمة اكثر منها اخبارا تاريخية ، او مادة تتعلّق بالانساب ، شعرية او جامعة . وبعد هذا الذي قدّمه جورجيو ليڤي ديلا ڤيدا ، وليوني كائيتاني ، وفرانشيسكو غبرييلي، وميكيلانجيلو غويدي ، ظَهَرَ كتاب آخر في دراسة الاحداث التي رافقت هذا المنعطف التاريخي الحاسم في بداية عهده . الكتاب للسيدة لاورا ڤيتشيا ڤاليري ، وقد عادت فيه الى فحص هذه القضية الصعبة على اساس مواد جديدة تاريخية ، و خرى تتعلق بالانشقاقات الدينية ، مستقاة من مصادر (اباضية) استطاعت بواسطتها القضاء على بعض التناقضات ، وأن تسدّ بعض الفجوات المتعلقة بالاحداث . ودعمت السيدة ڤاليري ذلك بكتابها (ترجمة خطوات تتعلق بالنزاع بين معاوية وعليّ ، وانشقاق الخوارج) ، لتجعل منه فهرسا لا بدّ منه لأبحاثها الخاصة التي كتبتها بروح نقادة ، وتوثيق جاهد دؤوب . وقد استقت مادة كتابها هذا على الاغلب من (كتاب الجواهر) للبرّادي ؛ وهذا المؤلف يمكن اعتباره واحدا من اوثق مؤرخي الشيعة الاباضية

في افريقيا الشمالية . وبهذين الكتابين القيّمين اكتسبت مُستعربتنا كفاءتها العالية في هذا الحقل ، بحيث أن العديد من (الكلمات) التي ورد شرحها في الطبعة الثانية من (دائرة معارف الاسلام) والمتعلقة بالفترة المشار اليها ، تحمل توقيعها ، واهمّها اسم (عليّ ابن ابي طالب) .

أمّا كتاب البلاذري التاريخي الكبير ، الذي يمكن اعتباره اقدم المراجع التاريخية الباقية لدينا حول القرنين الأوّلين من ظهور الاسلام : فقد شارك فرانشيسكو غبرييلي مشاركة فعالة في الانتشار الواسع الذي لقيه ــ وكان قد عُهِدَ الى غبرييلي بتحقيق جزء من هذا الكتاب ، ولكنَّ من المؤسف انه لم يُنْشَر بعد ــ ومشاركته هذه هي في كتابه (خلافة هشام) الذي اعاد فيه بناء فترة المُلْك الطويل الامد للابن الرابع لعبد الملك على اساس المصدر المذكور وغيره من المواد التاريخية الموثوق بها ، وذات الصلة بالموضوع . على اساس من هذه الدراسة الاولى بدأ غبرييلي سلسلةً مرموقة من المشاركات في الدراسات التاريخية للعهد الأموي ، لم يلبث أن اغناها فيما بعد ــ الى جانب الفصول التي تَضَمَّنَتْها مؤلفاته العامة المتقدّم ذكرها حول تاريخ العرب ــ بأبحاث موثّقة جدّاً حول (الوليد بن يزيد ، الخليفة والشاعر ــ وثورة بني المهلب في العراق ، والبلاذري الجديد ــ والبطل الاموي مسلمة ابن عبد الملك) . وفي هذه الكتابات ــ كما في ما سبقها حول الفترة العباسية ، ممّا سبقت الاشارة اليه ــ تُصبح الاعمال التاريخية ، والاعمال الضئيلة الاهمية ، معالم واضحة بما يضفيه عليها من تفكيره واستطراداته ذات الطابع الاجتماعي ، والبيئي ، والثقافي ، والتي تُمثّل ، هنا وفي اي مكان آخر ، الجزء الادعى الى التقدير من انتاج غبرييلي العلمي والتعريفي .

وفي اطار العصر الاموي يدخل ايضا البحث الذي عنوانه (العرب في الهند) للمؤلف نفسه ، ومن خلال مصاحبة البلاذري ، ولا سيّما في كتابه (فتوح البلدان) المشتمل على القليل من المعلومات التي وصلت الينا في كتب التراجم والتاريخ العربية حول فتح السند ، وضع

غبرييلي كتابا حول محمد بن القاسم الثقفي ، الذي ضُمَّ الى الامبراطورية الأموية تلك الولاية الجديدة النائية ـ السّند ـ « حاملا معه الى الهند ديانة جديدة ، وثقافة جديدة » . في هذه المرة ايضا يضيف غبرييلي في الفهرس ترجمة لبعض الصفحات المأخوذة عن (الشاهنامة) ـ وهي رواية فارسية ، من القرنين السابع والثامن ، منظومة شعرا عن اصل عربي مفقود من تاريخ الفتح ـ . ولهذه الرواية الشعرية ، القليلة الاهمية التاريخية بالنسبة الى الاحداث المشار اليها ، نجد تقييما مفيدا في الجزء الاول من البحث . ورغم خشيتنا من التكرار ، لا بدّ لنا هنا ايضا من ان نثبت بالتحديد ـ مثلما قدّمنا في العصر الجاهلي ـ أن هناك مشاركات اخرى لمعرفة البيئات التاريخية والاجتماعية في العصر الاموي ، نجدها في جميع كتابات مستعربنا هذا ؛ كَتَبَها حول الصوفيين ، والشعراء ، والناقدين في ذلك العصر ، من الحسن البصريّ الى ، جميل بن مُعْمَر ، الى ابن المقفع .

وأما عبد العزيز بن مروان ، الذي وُلِيَ على مصر عشرين سنة (٦٨٥ ـ ٧٠٤) للأمويين في دمشق ، حيث كان الخليفة اخوه عبد الملك ابن مروان ؛ فقد كتب حوله اومبرتو ريتستانو بحثا ، جاء استكمالا لدراستين كان قد كتبهما في شبابه حول الشاعر (ابو محجن نُصَيب ابن رباح) ، الشاعر والمولى المخلص لذلك الوالي (عبد العزيز بن مروان) ، وكان يُكثُر في شعره المدح والشكوى ، وقد تضمّنت كتب الادب مقاطع من قصائده .

وعلى غرار لاورا ڤيتشيا ڤاليري ، وبارشادها ، دَرَسَ مستعربون آخرون من المعهد الشرقي في نابولي ، مظاهر ووجوها خاصة من الشيعة الاباضية ، وما كان لها مع الشيعة الخارجية ، التي تحدَّرت منها الاباضية ، من خلافات لا يستهان بها في التاريخ العربي . اما العلاقات بين عبد الملك بن مروان وزعماء تلك الفئة المنشقّة ، فنجدها موضّحة في مقالٍ لروبرتو رُوبيناتشي عنوانه (الخليفة عبد الملك بن مروان والاباضيون) . ويشتمل المقال على ترجمةٍ لرسالة من عبد الله

ابـن إباض الى الملـك الاموي ، نقلا عن المراسلات التي جرت بـين الرجلين ، والتي لم يُحْفَظ لنـا التاريخ سوى بعضهـا .

• • •

العصـر العباسـي :

وكمـا هو معروف ، لم يجسد العصر العباسي بُعْدُ بين المستعربين مؤرخا ذا استعداد لأجـل العكوف على اعادة بنـاء القرون الخمسة من تاريخه . ولكنّ اهـمّ اثر دُرِسَ فيه شيء من ذلك العهـد الطويل ، لا يزال الى اليـوم كتاب (الوزارات العباسية ، من سنة ٧٤٩ الـى ٩٣٦) الذي وضعـه الفرنسي د . سورديل . امـا من المستعربين الايطاليين ، فقد وضع س . موسكاتي ، العالم بالساميّات ، سلسلة ابحاث حول تلك الخلافة وتطوراتها . وهـذا الباحث اهتـم اهتماما جادّاً بنشاط علميّ يباعِدُ بينه وبـين الاستعراب ، رغم انـه عمل في حقوله فترة من الزمن بموهبة وغَيْرَة . وقد سَلَّط ضوءا جديدا علـى بعض اللحظات الاساسية من الأسرة العباسية التي يُصْعُب بناؤهـا في الغالب ، بسبب الفجوات والاخطاء في الاخبـار التي يُمكن العثور عليهـا في المصادر . وامـا نهاية الامويين الفاجعة فقد سَجَّل موسكاتي وقائعها في كتابه (مذبحة الامويين في التاريخ وفي المقتطفات الشعرية) . وامـا بدايـة العباسيين الذين وصلوا الى السلطة بمساعدةٍ ثمينـة مـن (عبد الجبار بن عبد الرحمٰن الازدي) ، فقد خَصَّص لهـا ثلاثة ابحاث جَمَعَها تحت العنوانين التاليين : (دراسات حول ابي مسلم) و (ثورة عبد الجبار على الخليفة المنصور) . وكـان المنصور قد غاظه كثيرا مـا كان لمبعوثَيْه من نفوذ ، فقرَّر وضع حـدّ عنيف لحياتهما . ولكـن الاحداث اللاحقة لتلك الاسرة العباسية كانت ايضـا موضع اهتمام ذلك الباحث ، فقد اعـاد بناءها على أساس دراسة واعيـة للمصادر ، ونَشَرَها ، بمظاهرها السياسية والعسكرية ، في ثلاثة ابحـاث : هي : (دراسات تاريخية حول خلافة المهـدي ـ ودراسات تاريخية جديدة حول خلافة المهدي ـ وخلافة الهادي) وهي كلّها مراجع لا غنى عنهـا

للباحث الذي سيحاول كتابة تاريخ الخلافة العباسية . فاذا ما وُجِد هذا الباحث ، فسيجد موادّ نفيسة تساعده على القاء الضوء على العلوية والخارجية خلال الفترة الاولى من العصر العباسي ، في بحث عنوانه (شطحات فكرية حول ثورتين عَلَوِيَّتين) ، للسيدة لاورا ڤيتشيا ڤاليري ، و (المراسلات بين المنصور ومحمد النفس الزكية) للكاتب ر . تراپني ، وفي (تبادل الرسائل بين هرون الرشيد وحمزة الخارجي ، حسب كتاب « تاريخي سيستان ») للمستشرق المتخصص بالفارسية ج . سكارتشيّا . وهذه دراسات استُخدِمَت فيها مصادر لم يُسْبَق فَحصُها .

بعد بضع عشرات من السنين من بداية الخلافة العباسية الدموية ، كان يمكن اعتبار هذه الخلافة قد توطّدت اركانها . وكان من نصيب هُرون الرشيد فضلُ المضيّ على آثار الخلفاء الاربعة الأوّلين حتى تبلغ الخلافة اقصى زهوتها . وقد تضافرت الاساطير التي نُسِجَت حول شخصية الرشيد الملكية ، وحول امبراطوريته الزاهرة ، وبلاطه ذى الفخامة المذهلة ، مثلما تضافرت كذلك الانجازات غير العادية التي تمّت في عهده ، على تمجيده وتعظيمه .

ونحن فعلا نجد في كتاب (هُرون الرشيد ، تاريخ واسطورة) ، الى جانب الاحداث الرئيسية لذلك الخليفة ، التمجيد الذي أُسْبِغ على شخصيته بعد وفاته . وامّا وُلداه ، فقد اهتمّ الباحث نفسه بايضاح النزاع الدمويّ الذي ثار بينهما لاجل ارتقاء العرش ، وذلك في ثلاثة بحوث كان قد كتبها في شبابه ، وهي : (وثائق تتعلّق بخلافة الامين ، في الطبري — وخلافة هُرون الرشيد ، والحرب بين الامين والمامون — والمأمون والعلويون) . هذه البحوث التاريخية الثلاثة تتكامل مع العديد من ابحاث غبريلي الاخرى ، الادبية والدينية ، التي خَصَّصها للعصر العباسي . وهذا حقل كان قد بداه في بواكير دراساته العلمية ببحث عنوانه (حياة المتنبي) . ومن المؤسف ان دراسات الباحثين الايطاليين تتوقّف عند هذه الفترة من العصر العباسي ؛ وهي، في الواقع ، ازهى فتراته واقواها . واما الفترة التالية فليس في وسعنا ان نذكر حولها

اكثر من بحث واحد حول (الفتح بن خاقان ، الرجل المفضل لدى المتوكّل) ، وفيه توضح السيدة اولغا بينتو صورة ذلك الرجل — الذي يلقّبه بعض المؤرخين خطأً بلقب الوزير — في شخصيته المزدوجة : شاعرا ، ورجل سياسة . وكان الفتح رفيق الطفولة للمتوكّل ، ثم اصبح مستشاره ، واحيانا مرشده وموجّهه . ونذكر ههنا كتابا آخر للسيدة اولغا بينتو عنوانه (المكتبات العربية في العصر العباسي) .

غير ان العصر العباسي ، كما يعلم المؤرخون والمستعربون ، يعيد الى الذهن العلاقات بين اوروبا المسيحية والعالم الاسلامي : فالصلات بين هُرون الرشيد وشارلمان ، نجد حولها اشارات كافية الى حدّ ما لدى بعض المهتمين بدراسة العصور الوسطى ، الذين درسوا — لدوافع مختلفة ، وبنتائج مختلفة كذلك — النشاطات الدبلوماسية للملك الفرنجي . ومن بين آخر ما نعرف من تلك البحوث في ذلك الموضوع الشائق ، دراسة كتبها ج . موسكا ، وعنوانها (شارلمان وهُرون الرشيد) ، وفيها القى ضوءا على تلك الفترة التاريخية ، معتمدا على المصادر اللاتينية التي استمدّ منها اعتباراتٍ اصيلة حول الاسباب الدينية والسياسية التي دعت الغرب الى الاتصال بالعالم الاسلامي . وبعد نحو قرن من الزمن من تلك العلاقات ، قامت روابط اخرى بين حكومة بغداد واحدى الدوقيّات الايطالية ، او بالاحرى بين المكتفي وبيرتا التوسكانيّة — كما يُسْهُل ان نعرف من رسالتين متبادلتين بالعربية : رسالة كتبتها تلك المراة الطموح بيرتا ، وردّ الخليفة عليها ؛ وقد نشرهما لاول مرة المؤرخ محمد حميد الله — واوّل من اثارت تلك الاتصالات الرسائلية اهتمامه الشديد كان ليفي ديلا ڤيدا — ومعه في وقت واحد تقريبا س . ج . مور كذلك — . لقد قام ديلا ڤيدا بترجمة الرسالتين الى الايطالية ، وقدّم لهما باخبار وافية حول المصادر العربية التي استعان بها ، وعقب عليهما بافكار شخصية ثاقبة ، حول الاسباب الدبلوماسية والسياسية التي ربما كانت الاساس لتلك الاتصالات .

• • •

المغـرب واوروبـا :

بـدا فتح المغرب ، كما هو معلوم ، منذ عهد معاوية ، ولكنه ثبت وتوطد في عهد بنـي مروان ، وازداد ثباتا ومتانة في زمن العباسيين . وتلت ذلك سيادة الاسـلام التدريجية في وسط البحر المتوسط وشماله ، تمهيدا لغزو الاندلس ، ثم ، بعد قرن او اكثر قليلا ، لغزو صقلية ايضـا . ولم يتـم ادخال القوات العربية ـ البربرية الفتية الى المغـرب المسيحي القوطي في اسبانيا ، والبيزنطي في صقلية ، دون اصطدامات في الواقـع ، كانت مع ذلك تمهيـدا للقاءات غنيّة غير قليلة ، نجـد وقائعها التاريخية والاجتماعية والثقافية في كتابين اصبحا الآن من الاعمال الكلاسيكيـة ؛ وهما ؛(تاريخ مسلمي اسبانيا) لدوزي ـ وقد اعـاد ليڤي بروفنسال صياغته بشكل اساسي ـ وكذلك (تاريخ المسلمين في صِقِلّيَـة) للمستعرب الايطالي ميكيلي اماري .. هذه الاحداث وُقِـعَ معظمُها في القرون الوسطى الاوروبية ، ولذلك اثارت اهتمام المؤرخين الغربيين ، تحفزهم اليهـا تقييمات اثارتها اطروحة شهيرة وجديرة بالمناقشة ، كتبهـا هـ . بيرين ، بعنوان (محمـد وشارلمان) . وفي هذه الاحداث كلّهـا كانت مشاركة الباحثين الايطاليين بارزة . ونكتفي بان نشير منهـا الى البحوث التي كتبهـا المستعربون ، لاعتقادنا بعدم المقـدرة على اعطاء دراسة وافية في هذا الحقـل .

وكمـا فعل العرب من قبل في الاراضي الشرقية في آسيا ، كذلك فعلوا في البحـر المتوسط ؛ فقد وجدوا انفسهم وجهًا لوجه مع البيزنطيين . وفي هذا الموضوع كان (العـرب والبيزنطيون في البحر المتوسط الاوسط) عنوان البحث القيّـم الذي يوضح فيه فرانشيسكو غبريلي اهـم الوقائع . وهنالك اخبار تاريخية مهمّـة حول غارات المسلمين علـى صِقِلّيَة وكالابريا ، وحول الاستيلاء على كاستروجوفانّي عـام ٨٥٩ ، وعلى العموم ، حول العلاقات العربيـة البيزنطية في تلك الاراضي فـي القرن التاسع . هذه الاخبار نجدهـا في (حياة القديس ايليا الشاب) ؛ وهـو كتاب يوناني ، تَرْجَمَه وعَلّق عليه احـد المهتمـين بالدراسات

البيزنطية ، واسمه ج . روسي طايبّي . واما الهجوم على سيراكوزا والاستيلاء عليها ، عام ٨٧٨ ، فهنالك وثيقة نفيسة حولهما هي رسالة الراهب تيودوسيو ، التي نشرها لنا عالمٌ بالدراسات اليونانية اسمه ب . لافانييني .

واما الابحاث المتعلقة باسبانيا المسلمة فليست كثيرة ، بل هي في الواقع قليلة جدا . وهذا ايضا حقل دراسيّ طَرَقَه فرانشيسكو غبريلي في كتابه (رسالة ابن عبدون النقدية حول حكومة اشبيليا) ؛ وهو يحتوي على ترجمة ، مع حواشٍ وملاحظات ، لنصٍّ كبير الاهمية حول الحياة المدنية والاقتصادية والاجتماعية في اشبيلية في اوائل القرن الثاني عشر . ثم تلي ذلك حالا كتابات اخرى له ، بعضُها محاضرات ذات مستوى اخباري رفيع ، من مثل (الازدهار السياسي والاجتماعي في اسبانيا المسلمة ــ والزراعة العربية في اسبانيا وصِقِلّيَة ــ وعرب صِقِلّيَة وعرب اسبانيا) ، وكذلك الفصول التي سبق ذكرها بعنوان (مظاهر الحضارة العربية الاسلامية) التي نجد فيها تفاصيل لاكثر المظاهر التاريخية والفنية والثقافية الاسلامية ايجابية في اسبانيا وصقلية . والى تاريخٍ اكثرَ حداثةً يرجع بحثٌ للباحث نفسه بعنوان (العرب في اسبانيا وايطاليا) ، اهتمَّ فيه بشكل خاص بدراسة التنظيمات العسكرية في العهد الذي كانت فيه البلاد الاندلسية والصقلية جزءا من العالم الاسلامي . وهنا ايضا ، كما في المؤلفات والابحاث السابقة ، يتحرّك المؤلف من فحصٍ زمني للأوضاع في شبه الجزيرة الايبيرية والجزيرة الايطالية . والاحداث التي ادّت الى ضعف الخلافة الاموية في اسبانيا ثم انهيارها في القرن الحادي عشر ، وادّت كذلك الى انجازات مجاهد العامري ــ وهو واحد من ابرع رؤساء الطوائف ــ نجدها كذلك مصوَّرة في احدى الدراسات الموثّقة احسن توثيق ، كَتَبَتْها بالعربية المستعربة السيدة كليليا سارنيللي ــ وسنعود الى ذكر هذه السيدة فيما بعد ــ .

ويظهر أن كثيرا من المستعربين والمؤرخين الايطاليين الذين تخصصوا في دراسة مواقف معينة من العصور الاسلامية الوسطى في صقلية ، وفي ايطاليا الوسطى والجنوبية ، شاقهم اسم ميكيلي اماري وبحثه المتفوق في (تاريخ مسلمي صقلية) . وهو من أهم كتب التاريخ الايطالية في القرن التاسع عشر ، وقد استحق بجدارة أن يعاد طبعه مرة ثانية ، بعناية فائقة من كارلو ألفونسو نَلّلينو ، مع اضافة بعض النصوص المختارة اليه . وأما فرانشيسكو غبريلي فانه ، بعد البحث الاول الذي كان قد كَتَبَه سنة ١٩٢٨ بعنوان (التراث الروماني في ايطاليا الجنوبية والغزوات الاسلامية) ، عاد في فترات متقطعة الى (صِقِلّيَة العربية) — وهذا هو فعلا عنوان احد مقالاته الصحفية القصيرة ، من بين كتاباته المتقدّم ذكرها ، حول اسبانيا المسلمة ، وكلّها ممتع ، يتميّز بعمق التفكير ووضوح العرض — . وأما في ما يتعلّق باحتلال الاغالبة لصقلية ، وما نتج عنه من انعكاسات على الصعيد الثقافي والفني ، فنجد دراسة ممتعة في كتاب (المسلمون في صقلية) الذي ألّفه باللغة العربية المرحوم مارتينو ماريو مورينو ، وجمع فيه محاضرات كان قد القاها في الجامعة اللبنانية في بيروت .

ونجد اومبرتو ريتستانو معنيًّا بالحقل نفسه منذ نحو عقد ونصف العقد ، تُحْفِزُه الى ذلك على الأخص رغبةٌ في الحفاظ ، في صِقِلّيَة خاصةً ، على نوع من الدراسة كان قد اعطاه الحياةَ والقيمةَ العلميةَ المؤرخُ الصقلّيّ ميكيلي اماري ، الذي سبق ذِكْره مرارا ، اكثرَ مما تُحْفِزُه الثقة في مقدرته على المساهمة في تحسين آثار اماري الرائعة . ذلك لان النصوص غير القليلة التي خرجت الى النور بعد ذلك ، لم تُزوِّد المستعربين بموادَّ تَسْمَحُ باجراء تعديلات اساسية على تلك التي كان قد جمعها اماري في (المكتبة العربية الصقلية) . ومن دراسة النصوص التي لم يَطّلع عليها اماري ، ومعظمُها مختارات ، والتي لم تختلف عن تلك التي نُشِرت في (الذكرى المئوية لوفاة ميكيلي اماري) ، استطاع ريتستانو أن يلفت الى نفسه الانتباه ببحث له

عنوانه (مصادر عربيـــة جديدة لتاريخ المسلمين في صقلية) . واهـــمّ ما استوقفه منها تلك المصادر الفاطمية ، وعلى الاخص (سيرة جوذر) لابي علي منصور العُزيزي ؛ وهي وثيقـــة نفيسة ، تلقي الضوء خاصة على وجوه غير معروفة من نشاطات بعض امـــراء الكلبيين في صقلية ، وصلات جزيرتنا مع الضفة الافريقية المقابلة ، في نحـــو منتصف القرن العاشر . وقد خَتَمَ بحثَه بترجمةٍ بضع صفحات مـــن (السيرة) المذكورة . ومن بعد ذلك ظهرت لهـــا ترجمة فرنسية كاملة ،قام بها م . كانار . وبعد أن كشف ريتستانو هذه المصادر الجديدة ، تـــلا ذلك بنشر بعض تلك النصوص ، وفيها اخبـــار تاريخية لا وجود لهـــا في اي مصدر آخر . ومن هذه نذكر ههنـــا (كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار) للحميري . وهـــو مؤلف جغرافي لم ينشر الا بعضـــه حتى الآن ، والذي نشره ريتستانو منه حتى الآن هو القسم المتعلق بالبَرّ الايطالي وصقليـــة (١) . غير أن هـــذه المصادر المكتشفة ــ كما قدّمنا سابقا ــ كانت اهميتهـــا في أنها قدمت لنـــا مقاطع من الشعر ، وبعض السير واعمال المؤلفـــين ، اكثر مما قدمت لنـــا اخبارا ذات صلة « بتاريخ » المسلمين في صقليـــة . الا ان تلك المعلومات تُكْمِل معرفتَنـــا بالثقافة العربية التي نَمَت وتطوّرت في الجزيرة منذ عهـــد الفتح ، واستمرارها في العهـــد النورمندي ، ثـــم في العهد السوابي Svevi . وقـــد استفاد الباحث نفسه من هذه المـــواد في كتابه (الثقافة العربية في صقلية) ، الذي صدر منـــه الجزء الاول فقط ، ومن المؤسف انـــه لم يكمل بعد بالجزاين الثانـــي والثالث اللذين كان المؤلف يعتزم اصدارهما . ونحـــن نذكر هذا الكتاب ههنا لان في الفصلين الخامس والسادس منه دراسة سريعة حـــول الازمة الفاطمية في المغرب وصقلّية في القـــرن العاشر .

في أعمـــال فرانشيسكو غبريلي ، ومارتينو ماريو مورينو ، واومبرتو ريتستانو المتقدم ذكرها ــ وكلّهـــا تستلهم آثـــار ميكيلي اماري ــ يعيش المـــرء من جديد مع لحظات بارزة من احداث امتدت ــ من الوجهـــة

---

(١) الكتـــاب كاملا حققه الدكتور احسان عباس ، وتولت نشره مكتبة لبنان ، في بيروت ، سنة ١٩٧٥ (ع . ن .) .

التاريخية الصرف ـ مدة اقل من قرنين ونصف القرن ، غير ان آثارها ، في جوانب اخرى ، استمرّت في صقلّية الى عهد فريدريك الثاني ، وفي ايطاليا الجنوبية كانت نهايتها الحاسمة على يدي الملك السوابي كارلو الثاني دانجو ، الذي قضى على العناصر العربية في لوشيرا ، واضطرّ العناصر الاسلامية الباقية في صقلّية الى الهجرة . والوثيقة العربية الوحيدة التي وصلت الينا حول هذه الحادثة هي (تسجيل المرتب لريكّاردو دي لوشيرا) وقد نشرها ليفي ديلا فيدا بعد ان قام بترجمتها وتعليق الملاحظات عليها .

واما صقلية النورمندية والسوابية في صلاتها بالعالم الاسلامي في افريقيا وآسيا ، وكذلك انماط حياتها المتعدّدة وفكرها العربي الذي استمر في ذلك العهد ، فنجد صورة لها في سلسلة من الابحاث التاريخية والثقافية التي كتبها فرانشيسكو غبريلي ، واومبرتو ريتستانو : الاول منهما نذكر له (سفارات بيبرس ومانفريدي) ، ويليه حالا لاومبرتو ريتستانو مقالان باللغة العربية بعنوان (النورمنديون والعرب في صقلّية) ، وهما يدوران على علاقات النورمنديين والزيريين في افريقية ، وعلاقات غوليلم الثاني وصلاح الدين . وقد عهدت وزارة التعليم الايطالية الى هذين الباحثين بالاشراف على نشر اعمال ميكيلي اماري واورافه . وكانت هذه المهمة تقتضيهما واجب العناية بالطبعة الثانية من (الدراسات القديمة) و (المكتبة العربية الصقلّية) نصوصاً وترجمات . واما النورمنديون الذين وطّدوا لهم الامبراطورية جورجيو الانطاكي السيطرة على افريقية مدة عشر سنوات ، وكذلك الموحّدون ، وهم القوة السياسية والدينية الجديدة التي قضت على التحصينات المسيحية في افريقيا ، فنجد حولهم اخبارا موثّقة في (تاريخ طرابلس وليبيا) لإيتّوري روسّي ؛ وسنعود الى ذكره في ما بعد . وحول الاسرة الملكية المذكورة ، ولا سيما اخبارها التي وصلت الينا من المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي ، كتب فرانشيسكو غبريلي (اصول حركة الموحدين في مصدر تاريخي شرقي) . وتعود بنا الذكريات الى

الاحداث التاريخية في صقلية في عهد الكلبيّين ، والعهد النورمندي خاصة في كتاب (باليرمو حسب الجغرافيين والرحالين العرب في القرون الوسطى) للسيدة ادالجيزا دي سيمونه ، وكان هذا البحث رسالة قدّمتها لنيل شهادة الدكتوراة الى كلية الآداب في جامعة باليرمو ، حيث يقترن تعليم اللغة العربية في وقت واحد بالدراسات العربية الصقلّية .

وبعد وقفتنا القصيرة هذه عند صقلّية ، نلتفت الآن الى شبه جزيرتنا ، فنتذكر ان الغزوات العربية المتعددة للبَرّ الايطالي ، قد تحدّث حولها اومبرتو ريتستانو في بحثه (العرب في ايطاليا) . وقد خَصّص القسم الاول منه لرسم صورة سريعة شاملة لفتح صقلّية . وكذلك فرانشيسكو غبرييلي في اكثر من بحث واحد ، ولا سيما في مثل دراستيه (العرب في كالابريا) و (مدينة باري العربية) ؛ وكذلك في بحثين آخرين اكثر جدية واوسع إحاطة من حيث الزمن والرقعة ، وهما : (سالنتو والشرق العربي) و (العرب في اوروبا : اسبانيا وفرنسا وايطاليا) ؛ وهذا الاخير فصل من كتاب للمؤلف عنوانه (محمد والفتوح العربية الكبيرة) .

وحول وجود العرب المشار اليه آنفا في الاراضي الايطالية الوسطى والجنوبية ، واعمالهم الحربية المتواصلة ، الى حدّ ما ، وما كان يتبعها من فرضهم الجزية ، اضيفت الى جهود المستعربين جهود اخرى قيّمة ، في الغالب ، من بعض المعنيين بدراسة العصور الوسطى . وينبغي ان نحدد ان جهود هؤلاء قد عُنيت باعادة بناء صورة الاحداث المشار اليها ، وما رافقها من الاعيب اللومبارديين والبيزنطيين السياسية التي عاصرتها . وكانت هذه الأعمال اقرب الى الصحّة في ما يتعلّق بالفئة الاولى ، لان المصادر اللاتينية ، رغم ما فيها من نقص وعدم دقة من حيث صحة الوقائع ، كانت اقل توزّعا وتشتّتا من المصادر العربية ؛ ففي هذه المصادر لا نجد في الغالب اثرا لاعمال العرب في البَرّ الايطالي . وبالرجوع الى المصادر اللاتينية — ويندر ان نجد

في المصادر العربية ما يطابقها أو يكملها ـــ استطاع ج . موسكا ، العالم بتاريخ العصور الوسطى ، ان يعيد بنـاء تاريخ الاعوام الخمسين التي كانت فيها مدينة باري عاصمة لدولـة اسلامية مستقلة ، وإن يكـن قد اعطانا تقييمات غير تلك التي أَلِفْناهـا . وقد استطاع ان يصـوِّر فيما بعد غروب تلك الدولـة النهائي في بحث لاحق . ومن الواضـح ان وجود العرب في صقلّية وفي ايطاليا ، وعلـى الاخص في سالنتـو ، قد اشار اليـه مؤرخون من امثال ل . سلفاتوريللي ، و م . سكيبـا ، و ج . بوكيتينو ، و س . ج . مور ، و إي . بونتيري ، و ن . تشيلينتي ، و ج . بيتروني ، وغيرهم ممّن نجـد ذكرا لاعمالهم لدى موسكا ، مصحوبا براي مدروس حول قيمتها في مـا يتعلّق بمدينة بـاري .

ان الغـزوات العربية لشواطىء البحـر التيريني الايطالية تُدْخِل في تاريخ العصور الوسطى كبرى الجزر في ذلك البحـر ، وهي جزيرة سردينيا التي كان المسلمون يغزونها إمّـا من افريقية ، وإمّا من جُزُر الباليار . وكانت جنوا وبيزا بشكل خاص منهمكتين دائما في صدّ هـذه الغزوات . ولقد قامت منذ نحو قرن من الزمان محاولةٌ لاعادة بنـاء وقائع هذه الغزوات ، بشكل خيالي ، في الواقع . والذي قـام بذلك هو ب . مارتيني ، الذي « اعمَتْه الغيرة الوطنية ـــ كما يقول اماري ـــ فلم يفطن الى ما يحوم مـن شكوك حول اصالة الوثائق التي استنـد اليها في بحثه » . وبعد أكثر من مئـة سنة من ظهور ذلـك البحـث الذي لا قيمة لـه ، قامت السيدة كليليا سارنيللي باعطاء صورة وافيـة لتلك الفترة التي كانت فيهـا سردينيا تحت تهديد مباشر من اسطـول مجاهد العامري الجبّار . وقـد فعلت ذلك في فصلٍ رائع التبويب مـن الدراسـة المذكورة آنفـا ، والتي ظلّت ، مع الاسف ، بعيدة عـن متناول علماء العصور الوسطي . وقـد قُدِّمت هذه الدراسة الى كليـة الآداب في جامعة القاهرة لنيـل شهادة الماجستير ، ثـم قامت بنشرها بالعربية ، كما ذكرنا آنفـا . وفي موضوع سردينيا عينـه والاعمال التي قام بها المسلمون فيها ، ظهر ايضا بحث للسيدة لاورا ثيتشا ثاليبري ،

استاذة كليليا سارنيللي ، كانما كـــان الدافع اليه دعـــم تلميذتها في مجال بحثها عينه . ويتجدد الاهتمام بسردينيا (العربيـــة) في بحث بالفرنسية عنوانه (آثـــار عربية في سردينيا) ، يرى فيه المؤلـــف جوفانّي اومان انـــه لن يمكن القاء ضوء جديد حول تلـــك الغارات العربية الا بعد دراسة آثارية كاملة للجزيرة ، تكون نتيجـــة حُفَريّات منظمة فـــي مناطق معينة . اما المـــواد القليلة التي يضمّها متحف كالياري فليســـت كافية لاي اثبـــات .

• • •

الحـــروب الصليبيـــة :

وعهـــد الحروب الصليبية الذي اصطدمت فيـــه المسيحية بالاسلام في بلدان الشرق الادنى الافريقية والآسيوية ، حيث كانت جذور الاســـلام متأصلة اكثر من سواهـــا ؛ لقد تعدّدت بحوث علمـــاء العصور الوسطى حولها ، ولكننا نكتفي بأن نذكـــر من احدثها : (تاريخ الحروب الصليبية) للمؤلف ف . كونياسّو . وامـــا المستعرب الاول والاخير حتـــى الآن الذى التفت الى المصـــادر العربية ، لكي يرى تلك الحروب بعـــين الخصم حينذاك ونفسيته ، فهو ايضا فرانشيسكو غبرييلي ؛ فقـــد اكتشف مجموعة من المختارات البارعة لاشهر مُدَوِّني الاحداث العـــرب ، ممن نَقَلوا الينـــا اخبارًا وانطباعات ، اغلبُها ذو اهميّة تاريخية كبرى ؛ وقـــام بترجمتها الى اللغـــة الايطالية وتحقيقها . ومن هذه المجموعة الكَشْفَة وُلِدَ كتاب (مؤرخو الحروب الصليبية العرب) ، الذي يستحق عليه غبرييلي اعظم الثناء لدقّتـــه اللغوية ، وفخامة عبارته النثرية . وبهذا الكتاب فَعَل المؤلـــف ما كان قد فعله قبل عـــدة اعوام حينما نَشَر كتابه (فرسان القديس يوحنا لدى مؤرخي الحروب الصليبية العـــرب) ، اذ اتاح للزملاء من غـــير المستعربين فرصة الوصول الى اكثر المصـــادر اصالةً في (الكتابة التاريخية العربية للحروب الصليبية) ـــ وكان هـــذا عينه موضوع مقال لاحقٍ لـــه ـــ وإن لم يكن السرد متتابعا في الدراسة ، فلقد كان غريبا في الاغلب على المؤرخين ومدونـــي الحوادث المسلمين .

وفي رقعة الشرق الادنى عينها ، حيث كـان يتأجّج العداءُ بين المسيحيين والمسلمـين ، يُدْخَل بحثُ (العالَم الاسلامي في زمـن فريدريك الثاني) ، وهو بحث كتبه ليثي ديلا ثيدا ، مركّزا فيـه بشكل خاص على لمحـة سريعة من سلسلة الاتصالات والعلاقات بـين المسيحيين والمسلمين ، الذين عاشوا افضل أوقاتهـم فعلا مع ذلك الامبراطور السوابـي .

• • •

عهـد الركـود :

والعهـد الذي يأتي مباشرة بعد سقوط خلافة بغداد عـام ١٢٥٨ ، يسجّل بداية ركود بطيء، ولكنه مستمر، في العالم العربـي . ويزداد الركود ـ او الانحطاط ـ تأكدا منذ بدايـة القرن السادس عشر ، بسيطرة العثمانيين على البحـر المتوسط الشرقي والاوسط . منذ ذلـك النصف من القرن الثالث عشر كان المماليك اهـمّ صُنّاع التاريخ الاسلامي واستمرار العروبة مـدّةَ قرنين ونصف القرن . وظلّت مصر مُرْكَـز الاسلام والعروبة ، مثلما كانت كذلك في العهـد الفاطميّ والعهد الايوبـيّ الذي جـاء بعده . والجهد الايطالي الوحيد لمعرفـة البروتوكول الجافّ والمعقـد الذي كان سائدا في ادارة الحكم المملوكي ، هـو بحثٌ بعنوان (مرسوم تعيين الى نيابـة طرابلس ، في سوريا ، من السلطان المملوكي خُشْقَدَم ، ١٤٦١ ـ ١٤٦٧) ، وفيـه نَشَرَتْ المستعربةُ الشابة رينـا روزي دي ميليو الوثيقة العربيـة ، مشفوعة بتعليق تاريخي توضيحـي . واكثرُ من ذلك كانت الابحاثُ المتعلقـة بعلاقات سلاطين المماليـك مع بعض المـدن البحرية الايطالية ، ولا سيما البندقية . وكانت هـذه العلاقات ، قبل ان تقـوم في شرقيّ البحر المتوسط اكبر دولـة معادية لهـم ، هي الدولة التركية ، قد نَمَّت علاقاتِ تبادلٍ تجاري واسع مـع من سبقهم في السيادة على ذلك البحـر . وأما العلاقات مع البندقية ـ وقد عَرَض لهـا غبرييلي بنظرة شمولية في مقال لـه بعنوان (البندقية والمماليك) ـ فان الكشف الذي قامت بـه ماريا نَلّلينو على (مذكرات مارين سانودو) سيكون عونـا ثمينا لمعرفتها . واهمية هذه المذكـرات

هي في كونها وثائـــق تعكس العلاقات وغيرُها ممّا سَبقها . وقد كشفت ذلك ماريا نَلّلينو في بحثها (مصر منذ وفـــاة قايت باي الى مجيء قانصوه الغوري ، ١٤٩٦ ــ ١٥٠٥ ــ في مذكرات مارين سانودو) . وكانـــت للدوقيّات مصالح مع تونس كذلك منذ القرن الثالث عشر ، حينما بـــدا في افريقية حكـــم السلالة البربرية الحفصية . وفي هذه العلاقات يتحدث ا . ساتشردوتي حديثا واسعا في بحث لـــه عنوانه (البندقية ومملكة الحفصيين في تونس : معاهدات وعلاقات دبلوماسية ــ ١٢٣١ ــ ١٥٣٤) . وسنعود فيما بعد الى ذكـــر اسم هذا الباحث من جديـــد .

ان الاشـــارة الى العثمانيين باعتبارهم قـــوة جديدة في البحر المتوسط تقودنا الى ذكـــر كتاب (فخر الدين الثاني ، أمير لبنـــان ، والبلاط التوسكاني ، ١٦٠٥ ــ ١٦٣٥) ، وهـــو جزآن نفيسان قُـــدّم فيهما ب . باولو صورة موثّقة اوسع توثيق لجميـــع الاحداث التاريخية والدبلوماسية التي كان بطَلَهـــا ذلك الاميرُ الدرزي ، وكان مسرحها لبنان تارة ، وتارة اخرى بـــلاط الغراندوق كوزيمو الثاني التوسكاني ، الذي كان يبدو أن حكّام البندقية والاتراك معـــًا يكرهونه : فقد كان البندقيون مشغولين بمنازعة التوسكانيين على السيادة في الشرق ، مثلما كـــان يثير الاتراك ان يجـــد ذلك الاميرُ المغامر في صِلاته ببلاط آل ميديتشي ما يدعم نفوذه وسلطانه . وامـــا مصر العثمانية فيعيدنا اليها مقال بعنوان (تاريخ علـــي بك المصري ، ١٧٦٣ ــ ١٧٧٣ ــ في مخطوط للمؤلـــف ج . م . ديجون) يوضح فيه إيتّوري روسّي ، استنادا الى مصـــدر نفيس غير منشور ، حياةَ ذلك الرجـــل المغامر ومنجزاته الثوريّة ، وظهوره على المسرح السياسي المصري مـــدى عشر سنوات ، محـــاولا فصل مصر عن سلطان العثمانيين ، ومستفيدا في مطامحه تلك مـــن الحرب التي نشبت بين روسيا وتركيـــا .

• • •

في البحـــر المتوسط :

جـــاء ظهور العثمانيين في البحر المتوسط ، وما تلاه من تأخر العرب اللغوي والثقافي ، في وقت واحـــد مع تأليف الحكومات البربرية فـــي المغرب . وقد اهتـــم بجمع الوثائق الوفيرة حول هذا الحدث مستعربون وغيرهم ، وكتبوا فيه ابحاثا واسعة . واحدى الوثائق التي لا شـــك في اهميتها ، والتي يمكن ان تُطْلِعَنا على أعمـــال القرصنة المريعة التي جُرت في اوائل القرن السابع عشر ، هي في تقرير حول الجزائـــر وتونس ، قدّمـــه الى دوق البندقيّة ج . ب . سلفاغو ـــ وكان هذا كاثوليكـــيّ المذهب ، تركيّ التبعية ، وكان قد أُرسِل في مهمّـــةٍ خاصة الى تينـــك المدينتـــين سنة ١٦٢٥ . وقد اهتـــمّ بنشر تلك الوثيقة ا . سانشردوتي في كتاب لـــه عنوانه (افريقية ، او بلاد البربر) يُعْتَبر جهدا نفيســـا يساعد على معرفة تلك الفتـــرة التاريخية الحاسمة التي تقـــلّ فيهـــا الاخبار . امـــا الاعادة الكاملة لبنـــاء تاريخ البحر المتوسط في القرون التي كان فيها ذلك البحـــر يعجّ بالرعب القاتل الذي زرعه القراصنـــة ، والمتاجرون بالعبيد ، فقد عني بهـــا س . بونو ، مؤلف كتاب (القراصنة والبربر) . في هذا الكتـــاب الذي استقبله النقاد بالثناء الواسع ، نجـــد دراسة دقيقة لتلك الاحداث التي تُعْتَبَر بين اشرس الاحداث في تاريـــخ الانسانيـــــة .

والـــى تاريخ البحر المتوسط في القرون الوسطى وفي العصـــر الحديث ، سرعان ما تنبّـــهَ الاهتمامُ التاريخي لدى المستشرق ايتّوري روسّي ؛ وكان هذا من كبـــار المعنيّين بالدراسات التركية من المستعربين ، وقد ساعده ذلك اكثر من سواه على ان يُعْنَى باللقاء الذي تـــمّ بين عالميْن مختلفين في ذلك البحـــر ، ليقوم بدراسة بعض احداثه استنادا الـــى وثائق مزدوجة . ومن ابرز الادلـــة على ذلك مؤلفاتُه النفيسة التاليـــة : (حكـــم فرسان مالطة في ليبيا ، ١٥٣٠ ـــ ٥١) و (صلات جمعيـــة الفرسان بطرابلس الغرب في القرون اللاحقـــة ، ١٥٥١ ـــ ٩٨) و (المراسلات بين كبـــار معلمي جمعية القديس يوحنا في مالطـــة وبايات

طرابلس ، من ١٧١٤ الى ١٧٧٨) و (والصلات بين كبـــار معلمي جمعية مالطة وبايات تونس ، مـــن ١٦٤٢ الى ١٧٥٦) ـــ الكتابان الاولان منهما اسبق من سواهما ، وهمـــا من اوسع مؤلفات روسّي حول طرابلس الغرب واراضيه ، التي سنشير اليها فيما بعـــد .

في السجلات الحكومية في المـــدن الايطالية التي كانت لهـــا ، لاسباب مختلفة ولا سيما الاسباب التجارية ، صِلاتٌ مع بعض البلـــدان العربية في المشرق او في المغرب ، وقد نجـــد وثيقة هنا واخرى هناك ، تُلقي ضوءًا على تلك الصلات . ومن ذلك مجموعة من الرسائل نشرتهـــا ماريـّـا نَلّلينو باصلها العربي وترجَمَتِها الايطالية ، وقَدّمت لهـــا بمقدمة تاريخية ، وعلّقت عليهـــا تعليقاتٍ وملاحظاتٍ واسعةً في بحث لهـــا عنوانه (وثائق عربية حول العلاقات بين جنوا ومراكش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر) . ويبـــدو ان هناك كثيرا من الوثائق المأخـــوذة عن السجلات بلُغاتٍ مختلفة ، غير اللغـــة العربية ، استفاد منهـــا بعض الباحثين الايطاليين ، ممن لم يكونوا دائما من المستعربين ، في اعمالهـــم الرامية الى معرفة العلاقات بين الحكومات الايطالية قبل الوحـــدة ، والدول البربرية في الجزائـــر وتونس وطرابلس الغرب . وفي هـــذا الصدد ، ودون الاقتصار على تونس وحدهـــا ، كما اشرنا سابقـــا ، قـــدم لنا س . بونو مقارنات واسعة في بحثه (مصادر ووثائق ايطاليـــة في تاريخ تونس) . والاهتمام المتجدد الذي نَـــوَدّ ان نشير اليه ههنا ، والذي تثيره تلك العلاقات التي ترجع الى عهود متأخرة عن تلك التـــي ذكرناها آنفا ، بـــدأ بمقال للسيده لاورا ڤيتشا ڤاليري ـــ اذا لم تَخُنّـــا الذاكرة ـــ عنوانه (وثائق ڤاتيكانية تتعلّق بالجزائر ـــ ١٨٢٥ ـــ ١٨٣٠) تَلتْه بعد مـــدة قصيرة دراسة حول العلاقات بين (الكرسيّ الرسولـــيّ والبربر ، ١٨١٤ ـــ ١٨١٩) . وقد اضيف اليـــه بعد بضع سنوات بحث بعنوان (علاقات فرانسا قنّة توسكانا مع دولـــة تونس ، ١٨١٨ ـــ ١٨٢٢) ، كتبـــه ا . ريجّيو ، وكذلك (سردينيا ودول البربر ، مـــن ١٧٩٤ الى ١٨١٥) للمؤلف اي . بوسّي ، ثـــم (علاقات اسبانيا وسردينيا مع دول البلدان البربرية ـــ ١٧٧٨ ـــ ١٧٨٣) لـــه ايضا .

وعلى الرغم من انـــه ليس من قصدنا ان نمضي في تدوين جهـــود الباحثين الايطاليين الرامية الى معرفة تلك العلاقات مـــع دول البربر ، فانه يبدو واجبًا علينـــا ان نُذكّر ان كثيرا من العلماء المتخصصين بالعصور الوسطى والمؤرخين قد قاموا بأبحاث في هذا الحقـــل ، مستندين في الغالب الى اكتشافات واسعة لوثائـــق مستمَدّة من السجلّات . ومن هـــؤلاء الباحثين نذكر : ج . كابونين — و ج . ڤيدوڤانو — و ر . تشيستّي — و ا . غالّيكو ؛ كما نذكر ، بالنسبة الى ايطاليا الجنوبية وصقلّية فـــي نطاق السياسة في عالـــم البحر المتوسط : ج . لامانتيا — و ج . مونتي — و تشي تراسّيلّي — و ف . جونتا . ونحن حين نذكر هؤلاء ، ليس لنـــا من قصد غير الاشارة الى الاتجاهـــات ، وكذلك المواقع المتعلّقة بجـــزء من كتابة التاريخ الايطالية خلال الاعـــوام الخمسين الأخيرة بالنسبـــة الى تاريخ البحـــر المتوسط .

• • •

القـــرن التاسع عشر :

بالقـــرن التاسع عشر — وهو نقطة الوصول ، بالنسبة الـــى هذه المراجعة السريعة-تنتهـــي فترة الركود ، او الانحطاط ، في العالم العربي ، وتبـــدا بعد ذلك فترة التحرّر التدريجي مـــن السيطرة العثمانية المسؤولة مسؤوليةً مباشِرَة عـــن استنزاف المقدرة على التطوّر لـــدى شعوب الشرق الادنى ، والمغـــرب ، نتيجة للمناخ الاداري التركـــيّ المرهق الذي استمرّ اكثر من ثلاثة قرون . وفي هـــذه اليقظة يساهِمُ الغرب بوجوده في مصر في نهايـــة القرن الثامن عشر ، بحملة نابوليون ، التي وضعت امـــام العرب مثاليات تختلف كلّ الاختلاف عمّا عرفـــوه في الماضي القريب الجديب ، وتدفعهم الى الاخذ باسباب الوعي القومي ، تمهيدا لقيام الحركات الثائرة ابتـــداء من الحرب العالمية الاولى . وكـــان بعض البلدان العربية ، منـــذ بداية القرن التاسع عشر ، قد اتّجَـــه الى الخروج من الحكـــم العثماني الذي استمر اكثر من ثلاثة قـــرون ، ليصل الى استرداد بعض ملامحـــه القومية الاصيلة . ولذلك نرى من

الانسب والانفع من جميع الوجـــوه ختام القسم الاخير من هذه المراجعة ، مكتفين بذكر جهـــود الايطاليين العلمية في بعض الحقول الفرديـــة .

مـــن السهل الحدس ان الفرنسيين قد ساهموا مساهمة جليلـــة في كتابه تاريخ البلدان المغربيـــة المختلفة،منذ عهد الفتح العربـــي حتى الاحداث السياسية المعقدة التي انتهت هنالـــك بالاستعمار الفرنســـي للجزائـــر وتونس ، والاستعمار الفرنسي والاسباني للمغرب . واما جهود الباحثين الايطاليين فيما يتعلّق بتاريخ المغـــرب ، وعلى الاخص في الوضع الاداريّ في تلـــك المناطق الثلاث (الفرنسية ، والاسبانيـــة ، والدولية) فنذكر منهـــا ، للأهمية ، كتاب (تقسيم مراكش ـــ احداثهـــا السياسية والدبلوماسية) للباحث س . نافـــا ـــ ولو ان هذا الكتاب ينتمي بشكل خاص الـــى القرن العشرين ، وليس من اختصاص هـــذه الدراسة ـــ واما في التاريخ الحديث ، او على الاصح في فترة تاريخيّة محددة منه ، فنذكر (اسبانيا والمغرب ، ١٨٤٤ ـــ ١٩١٢) للباحث ا . فيستا ؛ وكذلك كتاب (وجها المغرب) للمؤرخ م . جامبيرو ، وهـــو اكثر تحديدا . وحول الجزائر ـــ والذي لدينا عنها قليل ـــ نذكر (الحرب الجزائرية التونسية عـــام ١٨٠٧ ، في مذكرات دبلوماسي هولنـــدي) . وهناك كتاب آخـــر شامل هو (تاريخ الجزائر للمؤرخ ر . راينيرو ، الذي أولى اهتمامه ايضا للحركة الوطنية الجزائرية . واما التزامات فرنسا في شمالي افريقيا فقد خصص لهـــا ف . دي لويجي كتابا . واما الاستعمار الفرنسي لافريقيا الشمالية ، والتدخّلات ذات الطابـــع الدبلوماسي ، التي سبقتها ورافقتها وتلتهـــا مؤسسات سياسية واجتماعية ودينيـــة في كل البلدان الاربعة (الجزائر ، وتونس ، ومراكش ، وليبيا) ، والتغيّرات التي جرت على اثـــر اتصالها بالغرب ، فاننا نجـــد لها كلّها تصويرا وافيا في كتابين قيّمين للمؤرخ اي . دي ليوني . وقـــد استفاد المؤلف الى حـــد كبير ـــ فيما يتعلق بمراكش خاصة ـــ ومن وثائـــق جديدة عُثر عليها في السجلات الحكومية في جنـــوا ، وليفورنو ، ونابولي ، وتورينو . وهـــذا الباحث عينه كان من قبل قد وضع كتابـــا حـــول

(سياسة الوطنيين في افريقيا الشمالية الفرنسية) ، ومقالا حول (مشكلة الوطنيين ومشاكل اجتماعية في الجزائر) . واكثرُ عددا مما تقدم كانت كتاباتُ الباحثين الايطاليين حول تونس .وكان بعضهم مدفوعا بعامل « المدافعة » عن ازمنة اخرى ، فلم يكن من الممكن تقييم اعمالهم هذه تقييما مجردا . وكان بعضهم الآخر يتميّز بالاتزان المرموق ، لتَجَرُّدهم عن التعصّب « للقضيّة الايطالية » التي طُرِحَت خلال الحرب العالمية الثانية . ومن المنطقيّ ان يكون القُطْرُ المغربي الذي ازدادت فيه اهتمامات مستعربينا ومؤرّخينا ، هو ليبيا ، وعلى الاخص طرابلس الغرب . وفي تاريخ هذا البلد من الفتح العربي (٦٤٢) الى الاحتلال الايطالي (١٩١١) ترك لنا ايتّوري روسّي عملا رائعا لاعادة بناء هذا التاريخ . وقد اكمل كتابه هذا عام ١٩٢٨ تقريبا ، ولم يُنْشَر الا بعد وفاته ، منذ بضع سنوات فقط (١) . وهو أوفى كتاب وادقُّه في هذا الموضوع — وهو في القسم الحديث منه يقوم بديلا عن كتاب (طرابلس الغرب من عام ١٥١٠ الى ١٨٥٠) للكاهن الفرنسيسكاني الاب كوستانتسو دابيرنيا ، ويضيف اليه تحسينات قيمة — وقد استند في كتابه هذا الى العديد من المصادر العربية والتركية ، مع دراسة نقديّة واسعة لها ، كما رجع الى وثائق وسجلّات غير منشورة . فجاء كل فصل من فصول الكتاب التسعة عشر تصويرا وافيا مُشْبَعًا ، وقائما على تفكير عميق في الاحداث التاريخية ، والتاريخية السياسية خلال ثلاثة عشر قرنا . ولم يُعْنَ بالتعميمات ، بل اعتَمَدَ دائما اعتمادا دقيقا على النصوص . والذين عرفوا ايتّوري روسّي معلّمًا لهم — كما عَرَفَه كاتبُ هذه المراجعة — يشهدون شهادة امينة بعدائه لكلّ شكل من اشكال الحلول الوُسطى بين البحث العلمي الجادّ والهواية الارتجالية .

---

(١) قام الاديب الليبي خليفة التليسي بترجمة هذا الكتاب الى العربية ، ونشره في بيروت ، سنة ١٩٧٤ (ع . ن .) .

ان الاشارة الى المصادر العربية التي استُمِدَّ منها الباحث المذكور موادّه الاولية لتاريخ ليبيا هذا ، ولعدد آخر من الابحاث ، يحدونا الى ان نذكر — حتى قبل هذه الابحاث — ترجمته الدقيقة لكتاب (تاريخ الوقائع العربية الليبية ، لابن غلبون) وما عَلَّقه عليه من هوامش وملاحظات . وهذا الكتاب ينفرد من بين المصادر العربية الاخرى لتاريخ ليبيا ، ليس فقط بامتداده الى سنة ١٧٣٢ ، بل باشتماله ايضا على اخبار لا توجد في سواه ، حول الحياة الفكرية المحلّيّة ، ابتداءً من الحكم العثماني . ونرى من لغو القول تاكيد اهمية الخدمة التي قدمها روسّي للباحثين من غير المستعربين في تاريخ ليبيا ؛ فقد كانت ترجمته للكتاب المذكور من اهم المراجع في تاريخ ليبيا . ومن سلسلة كتابات هذا الباحث حول ليبيا ، وهي تؤلف حقلا خاصا في انتاجه الضخم النفيس ، نشير كذلك الى كتاب له حول (فَزّان وواحة غات) ، والى صورة سريعة من (تاريخ ليبيا من الفتح العربي الى سنة ١٩١١) حيث تعطينا لمحة موجزة ، حسنة الشرح ، حول ذلك التاريخ .

هنالك صَفٌّ كثيف من الباحثين الايطاليين الذين قرنوا اسماءهم بمشاركات في الموضوع عينه . ومن بين هؤلاء يجدر بنا ان نذكر كذلك ر . ميكاكّي ، الذي كَتَبَ بحثًا تاريخيًّا حول (طرابلس وليبيا قبل الاحتلال الايطالي) وكتاباً بعنوان (ليبيا تحت حكم آل قَرَمَنْلي) . وآل قرمنلي هم اسرة اهتم بها كذلك مِنْ بُعْدٍ الاب كوستانتسو بيرنيا ، الذى تَقَدَّم ذكره . ولاجل وضع الكتاب المذكور ، استعان ميكاكّي — وكان موظفا كبيرا في الادارة الاستيطانيّة حينئذ — بموادّ وفيرة غير منشورة ، كانت متوافرة في السجلات الاوروبية ، وتتعلّق بليبيا تحت حكم الاسرة القرمنلية (١٧١١ — ١٨٣٥) وقد جاد بوضعها تحت تصرفه ب . توسكي ، وكان قد وضع لها كشفا غنيًّا بعنوان (المصادر غير المنشورة في تاريخ ليبيا) . وهناك اشارات اخرى الى الوثائق المحفوظة في السجلات الرسمية قَدَّمَها بعدئذ س . بونو . وهنالك

عـــدد كبير آخر كبير من المؤلفـــات حول تاريخ ليبيـــا نترك ذكرها للمقدّمة التي وضعها روسّـــي لكتابه (تاريخ طرابلس) ولمـــا الحقه من اضـافات ببليوغرافيّـــة بمختلف الفصول . واما ما لـــه صلةٌ مباشرة بالسنوسيّة ــ وكانت هـــذه قد دَخَلتْ منذ منتصف القرن الماضي دخـــولا بارزا في الاحداث التاريخية في بُرْقَـــة وطرابلس ــ فنتركها الى الاشـارات الببليوغرافية التي تضمَّنَتْها كتاباتُ كارلـــو نَلّلينو ، والبيتّـــي حول هذه الجماعـــة الدينيـــة .

. . .

اسرة محمـــد علي :

وناتـــي الآن الى محمـــد علي ، راس الاسرة التي حكمت مصر الى عـــام ١٩٥٢ ، والرجل الذي كان،بإجماع الآراء،معيدَ مجـــد مصر بعد سقوطها في اوائـــل القرن الماضي في حالـــة من الفوضى ، كانت الحملـــة النابوليونية قد خفَّفتْ من حِدّتها آنيّـــا فقط . لقد كانت جهود الباحثين الايطاليين حوله كبيرة ، غـــير ان القليل منها ذو قيمة حقيقية جديـــرة بالتقدير . ومن بينها جميعـــا تتميز اعمال ا . سَمّارْكو ، الذي عُهِـــد اليه الملـــك فؤاد الاول بتكملة الوثائق الدبلوماسية الايطالية المتعلّقـــة بمُلْـــك محمد علي ، ودراستها ونشرها . وكـــان اي . غريفّيني قـــد بـــدأ بجمع هذه الوثائق وادارتها ، وهـــو مستشرق متخصّص بالدراسات التركية ، كان قد استُدعِيَ الـــى القاهرة ليتولّى ادارة مكتبـــة القصر الملكي . ومن هذه المجموعة النفيسة غير المنشورة وُلِـــدَ القسمُ الأهمّ والأكثرُ اصـالة من انتـــاج سَمّارْكو التاريخيّ المتعلق بمصر الحديثة ، ومن ابرزها : (رحلة محمـــد علي الى السودان ، من اكتوبر ١٨٢٨ الـــى ١٥ مارس ١٨٣٩)؛وكتاب (مملكة محمـــد علي في الوثائق الدبلوماسية الايطالية غير المنشورة) باجزائه الأحد عشر . لاجـــل هذه الكتب ، وغيرها مما تلاها ، قـــام المؤرخ بفحص قسم كبير من الوثائق العشرة الآلاف المحفوظة في السجلات الحكوميـــة في نابولي ، وفلورنسا ، وتورينو ، والبندقية ، وفيينّـــا ، مدقّقا ومقارِنًا بينها ، ومستخلصا منها حقائـــق

وتقييمات تاريخية جديدة كـل الجدّة بالنسبة الى تلك التي كانت تتميّـز بهـا الكتابات التاريخية الشرقية والغربية حينذاك ، بسبب نقص الوثائق الصالحـة .

ومـن المؤسف أن اندلاع الحرب العالمية الثانية ، ووفـاة الباحث بعدئذ ، كانا السبب في عـدم انجاز العمل في عدد آخر من الاجـزاء التي كانت متوقّعة لهذا الكتاب ، عـدا الاجزاء المنشورة منه . ولقد كان سَمّارْكو كذلك مؤلّفـا للجزء الرابع من الكتاب الفرنسي (موجـز تاريخ مصر) حول مُلْـك عباس ، وسعيد ، واسماعيل ؛ وكذلك المجلـد الثالث من كتاب ذى خمسة مجلدات ، تبـدأ من أوائل القرن التاسع عشر ، وتصل الى الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ ، وكذلك (مُلْـك الخديوي اسماعيل ، من ١٨٦٣ الـى ١٨٧٥) باللغـة الفرنسية . وهذه كلّها اعمال انضجتها الدراسة الجامدة للوثائـق المنشورة وغير المنشورة ، المتعلقة بالقرن التاسع عشر مـن التاريخ المصري .

وفي هـذا القرن نُجِدُ تمهيدات لِحوارٍ مع أوروبـا ، كان قد بـدأ من قَبْلُ في زمن محمّـد علي ، واستأنفه من بعده خلفاؤه بكثير مـن الاهتمام ، مما ساهم في وضـع مصر على راس البلدان العربية ، في الحقل السياسيّ ، والسياسيّ الثقافيّ ، وبمحمد علي يُخْتَمُ كتابُ (تاسيس مصر الحديثة ، والمساهمة الايطاليـة في نهضتها السياسية والمدنيـة — فجر النهضة المصرية — ١٧٦٠ — ١٨٤٠) ؛ وهو رؤيـة شاملة ورائعة قدّمها ا . فيرتسي . وكذلك كتاب (القضيّة المصرية من سنـة ١٧٩٨ الى ١٨٤١) تاليف تشي . جيليو ، المعروف بابحاثه الاخرى فـي التاريخ والسياسة المتعلّقين بالاستيطان ، او الاستعمار . ومن هـذه الفترة عينها انطلق باولـو منغانتي في كتابه (مصر الحديثة)، الـذي يمكن اعتباره واحـدا من اكمل الابحاث واحدثها في الاحداث التـي جرت في منطقة الدلتـا من القرن التاسع عشر الى ثـورة ١٩٥٢ .

ولا تختلف زُمنِيّـا نقطة الانطلاق في الكتاب الآخر (مصر من احداث ١٨٨٢ الى ايامنـا هذه) بِجُزْايهِ ، للباحث ب . البيتي ؛ وقد عني فـي

هذين الجزاين عنايـــة جادة بتحديد وجـــه مصر خلال الاعوام الثمانـــين الاخيرة من تاريخهـــا . وانطلاقا من مقدرة المؤلـــف الفريدة ، وتحليلاته الدقيقة ؛ وبحثه الجـــادّ ، استطاع ـــ وهو موظف كبـــير في وزارة الخارجية الايطالية ـــ ان يكمل كتابه في عـــدة سنين ، كما يبدو مـــن مقالاته المنشورة في مجلات مختلفة ، حول ازمنـــة معيّنة من تاريخ مصر الحديثـــــة .

ويمكننـــا ان نذكر بين المصادر التاريخيـــة ذات الاهمية القليلة او الكثيرة ، اضافةً الى كتيّب للباحث او . توسكي ، اعمالا ايطاليـــة عديدة تساهم في معرفـــة تاريخ مصر بين قرنين . وقد اغفلنا الاشارة اليها لان مؤلفات منفانتي قـــد اشارت الى اهمّها في ثنايا الفصـــول .

قنـــاة السويـــس :

وقنـــــاة السويس ، التي ولدت في القرن التاســـع عشـــر باهتمـــام دَوْليّ ومصالح مشتركة ، وبمباركة الجميـــع ، ولـــم تلبث ان اصبحت مثار جدل محتدم على اثـــر تأميم عبد الناصر لهـــا في صيف سنة ١٩٥٦ ؛ لقد كَثُرَتْ حولها الابحاث والدراسات والمقـــالات ، ليس فقط مِن قِبَل المؤلفين الذين سَبَق ذكرهم ، بـــل مِن قِبَل كثيريـــن آخرين وقفوا العديد من المقـــالات على هذه المشكلة الشائكة ، لكـــي يبرزوا بشكل خاص تعقيداتها السياسية والقانونية . جميـــع الظروف التاريخية الماضية والحديثة التي كان فيها ذلك المـــرّ المائي ذا دور حاسم من حيث النقـــل العسكري ، كانت تبـــدو مناسبات تَفْرِض على الباحثين خوض ذلك الموضوع . وكمـــا ان الحرب الايطاليّة الحبشيـــة، عـــام ١٩٣٥، اوحت الى سَمّارْكو بان يكتب مقالـــه (الحقيقة حـــول قنـــاة السويس) ، وعنوانه يرينا نيّـــةً سابقة مبرمَجة لدى المـــؤرخ لالقاء الضوء على قضايـــا ذات اهمية رئيسية ، كذلك اوحت الـــه الحرب العالمية الثانية بوضع كتابـــه (السويس ـــ تاريخ ومشكلـــة) . ولكنه في هذه المـــرة اراد ان يوضح لنـــا بعض الوجوه بشكل اوسع ،

واستنادا الى وثائق مصرية واوروبية غير منشورة . وقبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية مباشرة ، خرج الى النور كتاب بعنوان (قناة السويس والعلاقات الانجلو مصرية) للباحث ب . البيتّي ؛ وكتاب (السويس) وفيه أعادَ اي . انكيري طبع كتاب كان قد نشره قبل ذلك بعامين ، واكمله باحدث المعلومات . والببليوغرافية الغنية التي يتضمّنها هذا الكتاب تُغنينا عن اية اشارة اخرى .

السودان :

وهناك عبء آخر في التاريخ المصري الحديث ، وقد ظلّ كذلك عشرات السنين ؛ ذلك هو السودان الانجلو مصري ؛ وهو حكم مشترك عاصف كان قد تَقَرَّر منذ سنة ١٨٩٩ لذلك القطر الواسع جنوبي نهر النيل ، ولم يكن اقلَّ من قناة السويس اثارة للنزاع والفوضى بين حُكّمين متخالفين . وقد اضطر الانجليز والمصريون الى النزول عند مطالبة اهله الشرعية بالاستقلال . وأُعْلِنَ الاستقلال رسميًّا في ديسمبر ١٩٥٥ . وقد خصص سَمّارْكو ، ومِنغانتي ، والبيتّي ، في مؤلفاتهم المذكورة آنفا ، فصولا لهذه القضية ، فأوضحوا ببراعة فائقة الوجوه البارزة المختلفة ، واصدروا في ذلك تقييمات موضوعية . وقد قام اي . انكيري ، و او . توسكي بتحليل احداث الامس واليوم في مصر : الاول فعل ذلك بكتابه (تاريخ السياسة الانكليزية في السودان ، ١٨٨٢ — ١٩٣٨) والثاني في صورة سريعة للقضية اجملها في كتيّب يؤلف مع كتابه السابق حول مصر لوحة عضوية ذات وجهين . واوسع من ذلك كتابٌ وَضَعَهُ ا . ميلّليني بونشه دي ليون ، عنوانه (تاريخ السودان الشرقي وبعض وجوهه — السودان الانجلو مصري) ؛ وهو جدير بأن نذكره بين الاعمال الحديثة جدًّا ، وبالتالي بين اوفاها واشملها ، ولكنه يخلو من اية اشارة الى الوضع الذي انتهى اليه البلد حالا بعد الحرب العالمية الثانية ، حين احتدم النزاع بين الوحدويين ، الذين كانت القاهرة تشرف على تنظيمهم وتوجيههم لدعم الوحدة مع مصر ، ومعارضيهم الاستقلاليين .

ختـــام :

بهـذه الاشارة الى اهـم الاحداث التاريخية والانعطافات السياسية في العالم العربي في نهايـة القرن التاسع عشر ، التي اوضحتها ايضا ايضاحا كافيا الفصولُ الاخيرة من الابحـاث التاريخية العامة والجزئية ، نختتم هذه المراجعة السريعة لأهـمّ الجهود الايطالية في حقـل التاريخ العربي خلال الاعوام الخمسين الاخيرة . وقـد لا يكون الحصاد وافرا في بعض الحقول ، ولكنه وافـر فعلا في حقول اخرى . وقـد جمعناه مما عُنيَ بتاليفه المستعربون ؛ وهـم ذوو فضل في انهم كثيرا ما هيأوا للباحثين الآخرين امكانية الوصول مباشَرةً الـى المعلومات ، او بالأحرى قَدَّموا لهـم المَثَلَ في التخصُّص المِهَنـي ، والانقطاع الى دراسة عالَـم ظَلَّت البحوثُ الخاصةُ بمسيرته التاريخية زمنـا طويلا تُعْتَبَر هامشيّةً بالنسبة الى تاريـخ الانسانية الأكبر ، ولكنه اليوم ـ اخيرًا ـ لم يَعُـدْ خارج نطاق الابحاث العلمية المتخصصـة .